حسني سيّد لبيب

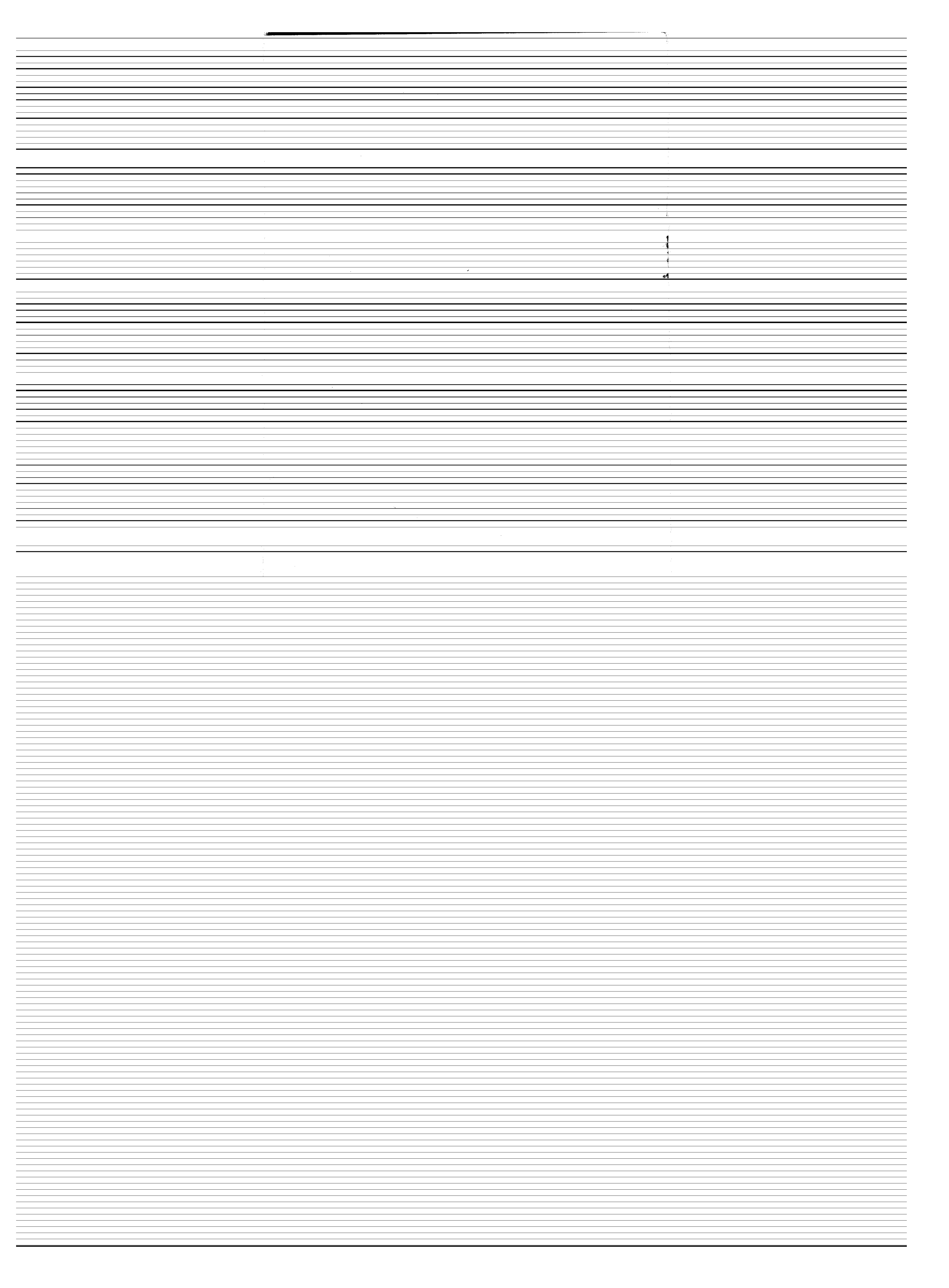
أحدّثكم عن نفسي

قصص

منشورات اتحاد الكتاب العرب
١٩٨٥

صمم الغلاف : سمير الكراد





المحتوى

أحدثكم عن نفسي

* حملق في المرآة . يشوب الوجه اصفرار وشحوب . عيناه مؤرقتان ، مذعورتان . حملق جيداً في المرآة ، وكأنه ينقب عن أصل الداء . صفحة المرآة ملساء ناعمة . لا يدري سر الهدوء الذي يشمله . ربما أحس أنه مغلوب على أمره ، ومقهور دائماً رغائبه ، وأمانيه ، ان لم تحبط أو تمت ، تظل رهينة ، حبيسة داخل جدران نفسه . وياليت المرآة تريه صورة من داخل الجدران ! . وياليته يدع مشاغل الحياة ، ويرتحل الى الأعماق ! .

* * أغلق باب الغرفة وشباكها المطل على الشارع الصاخب . وجلس على الكرسي الجلدي ذي المساند . استرخي تماماً . أغمض عينيه ، وأغفا قليلاً . أحس براحة

ما . أحس أنه أكثر راحة . ألفي نفسه قبالة مرآة أكثر عمقا ، وان تكن أقل لمعاناً ، ولا يرتاح الى ما تعكسه . إلا أنه استمرأ التحديق ، عساه يعمل الى قلب الأشياء ! .

* * * تريثوا يا رفاق . تعالوا نتجاذب أطراف الحديث . الحق أقول لكم : فقط أطلب منكم الإصغاء . لطالما أعطيتكم الفرصة . الآن يحق لي أن أتكلم . ويكون الكلام عن نفسي . لا تنزعجوا . نعم ، الحديث عن النفس ممجوج . أعرف . ولكن ما الحيلة ؟ .

اجلس يا عبد العال قبالتي ، أيها الطاعن في السن . لقد تجاوزت حدودك معي . وانتهزت كل فرصة سانحة ، لتحدثني عن ابنك الذي يدرس في الجامعة . تفخر به ، وبنفسك . دائماً تقول لي : « أنا بواب غلبان . وأحمد الله على تفوق ابني في الجامعة » . وتظل تحدثني عن حياتك المليئة بالمصاعب ، وكيف واجهت ملماتها وبلاياها بصبر ومثابرة . وأظل أصغى لحديثك ، وأنسى ـ في كل مرة ـ سبب استدعائي لك . ثم أقضي الوقت مهموماً من أجلك . وأجدني أدعو الله في صلاتي . . يارب ، أعِنْ عبد العال ، وحقق له أمانيه . . أظنك يا عبد العال ، تستطيع الآن أن تصغي الى جيداً ، ولا يضجرك حديثي عن نفسي : لن أزعجك . فقط ، أريد أن أحصي المرات التي قصدتك لأجل قضاء حاجياتي ، وحين أجدك مهموماً ، أمد لك يد المساعدة ، وأصغي لما تقول . فهل تسمح لي أن أحدثك

عن همومي ومـواجعي ؟ . ماذا دهـاك ؟ . تثـاقلت عينـاك ، ورحت في إغفاءة . ما عليك شيء ! . . للسن أحكام .

والآن ، اجلس يا عمي قبـالتي . حكـايتي معك ، أو قل مشكلتي معك ، معقدة ، وعويصة . أنت كثير الثرثرة . تحكي لي دائـماً عن آرائـك في السيـاسـة . تمجد فلاناً ، وتهجو علاناً . وتـدّعي أنـك عليم بـبـواطن الأمـور . كلما يعـن لي الإبانة عن رأي ، حتى تحجره ، مدّعيا فهم ما أقول ، رغم أني لم أكن قلت شيئاً بعد ؟ . وأندحر أمام بلاغتك ، وأصغي لما تقول . أصغي جيداً . وترتسم على وجهي ابتسامة ما . أما آن لك يا عمي أن تتفهم آرائي ؟ . فقـد أختلف معـك ، وقـد أؤيدك . لكنك لم تسمعني بعـد . ويحق لي الآن أن أتحـدث . لا تنهض مستأذناً . اجلس في مكـانـك . لست آمـرك . لكني أريد أن أحدثك عن نفسي . اجلس أرجوك .

وأنت أيهـا الصـديق العنيـد . لا أملك غير ابتسـامـة السخرية ، أواجه بها أفعالك . وأذكر حادثة عابرة . . كنت في ضائقـة ماليـة . معي خمسـون جنيهـاً ، وجئت لأقترض خمسين أخـرى . فواجهتني بأعـذارك . ولم أعلق على حديثـك بكلمـة واحـدة ، وأعطيتـك الخمسين جنيهاً . وعدت إلى البيت خالي الـوفـاض . وزادت حالتي اعسـاراً . نعم سددت لي المبلغ . ولست بهذا أقصـد شيئـاً . فقـط حادثـة عابـرة تذكـرتهـا . ربما تعكس روح الصـداقـة التي تربـط بيننـا . فلتجلس بجانبي أيها

الصـديق . أنـا الآن في حاجـة إليـك . لاتـدّعي أنك في أمسّ الحاجة إليّ ، وأن الظروف شاءت أن نلتقي في الوقت المناسب . لاتتثاءب . اجلس بجانبي أيها الصديق .

وهـا أنت أيهـا السيـد المدير ، وصلت متأخراً . لابأس . شكراً لك على أية حال . فكرت طويلاً أن أقوم بإجازة طويلة ، عوضاً عن الإجازات التي منعتني من القيام بها . أقول فكرت ، ولم أشأ أن أفعل . ليس في هذا أبغي الحديث معك . وأرجو ألا تحوّل الأمسيـة اللطيفـة الى جلسـة عمـل ، أنجـز فيهـا الأعمال المتأخـرة . ودائماً أجد أعمالاً متأخرة . اخترت لك هذا الكرسي الجلدي المـريـح ، لينـاسب المقام . من فضلك ، لنخرج قليلاً من دائرة العمل . أراك كثير النظر الى ساعتك ، دائم القلق ، دائب الحركة . ما الضير في مجالستي ولو لدقائق قليلة ؟ .

وأنت أيها الكاتب الهمام ، مراد فهمي ، أصادف اسمك في جريـدة الصبـاح ، وأقـرأ عمـودك اليومي . لدى شكوى مرة منـك . لماذا تتحـدث كثيـراً عن نفسـك ؟ . لا أعـرف أمـزجـة القـراء . لكني مللت كلماتـك كل يوم ، انهـا أشبـه بالثرثرات .

لا أعـرف لماذا أصر على قراءتها ؟ . أهو منطق العادة ؟ . تحشر كلمـة « أنـا » في مقـالاتـك ، بمناسبة وبدون مناسبة . اجلس معي يا أستـاذ مراد ، واستمـع إليّ . لعلك تجد في حديثي عن « نفسي » ، مادة شيقة تكتبها لقرائك . وبذا ، تخرج من سجن

« الأنـا » الـذي تقـوقعت فيـه . واسمـح لي أن أستعـير بعض عباراتك إن أعوزني سياق الحديث .

ويـا زوجتي العـزيـزة ، لا بد من تحيـة ضيـوفنـا الليلة . وأجعل حديثي اليك في نهاية المطاف ، مسك ختام . مصاريف البيت أرهقتني ، لكني أجـد عزائي في ابتسـامتـك الحـانيـة . وطلبـات ابنتنـا غادة لا تنتهي . دعـكِ من كل هذا ، فسأكـون مسـروراً لو أعـرضت عن سرد مشـاكـل البيت ومصـازيفـه ، وأصغيت الى حديث آخـر . تحمـلي كلماتي . أرجـوك . ما أكثر المـرات الـتي استمعت فيهـا إلى كلماتـك ، وأجبت خلالهـا طلبـاتـك ، وطلبـات غادة ، لا داعي لاستـدعـاء غادة . هذا المجلس ، قد يقلقها ، ويخرجها من عالمها البهيج . فلندع غادة تهنأ بعالمها ، ونفرغ نحن لأحزاننا .

* لم ينـم ليـلة أمس . عاد كما ذهـب وحـيـداً من عنـد الطبيب ، الذي تفرس في ملامحه بعد الكشف . هبوطاً حاداً في القلب . والحـالـة تستـدعي عمليـة جراحيـة في الصمام . طوى الـروشتة ، وخرج بخطى متعثرة . لا يلوى على شيء . جامد المـلامح . زائغ النظرات . المفاجأة أقلقته ، وأربكته . لم يصدر الطبيب قراره إلا بعـد التحـاليـل والأشعـة . ولأول مرة يطيـل التحـديق في المـرآة . ويلحظ الشحوب والاصفرار على وجهه . عينـاه غائـرتـان ، زائغتـان . أربعون عاماً انقضت من عمره ،

بعدها يعتلّ القلب ، ويُعيي صاحبه . لم ينم ليلته ، ولم يكاشف زوجته وابنته بقرار الطبيب . وكان الصمت ديدنه . .

* * * أفاق من اغفاءته . حملقت عيناه في جدران الغرفة المغلقة . وابتسم ساخراً من هذا المجلس الذي عقده ، خلال سرحة من سرحات البال ! , تلفّت حواليه في أنحاء الغرفة . لا أحد بجانبه . لا أحد يشاركه أحزانه . ارتاح لهذه العزلة . خلوة محببة قد تريح القلب المريض . قد تنجاب الغمة . قد تنقشع الغيوم ، وتنحسر الهموم . . واسترسل في أمانيه الحلوة ، حتى واتته اغفاءة . . وألفى نفسه جالساً قبالة البواب والعم والصديق والمدير والكاتب والزوجة ! . . متوجهاً اليهم بحديثه . .

* * * أحدثكم عن نفسي ، عن همومي ومواجعي . لطالما تحملتِ الكثير ، ولم أتثاقل على أحد ، وكنت بمثابة ضيف عابر في عالمكم المموّار . والآن ، لابد أن تحملوا معي شيئاً من همومي . أربعون عاماً قضيتها في حركة دائبة . أصغيت خلالها للآخرين ، وزاملتهم في محنهم . أعرف أن حديث المرء عن نفسه ، ممجوج . ولكن ما حيلتي . لقد ذهبت أمس الى . . .

* تنبّه الى نفسه ، وأفاق من إغفاءته . تحسس جبهته العريضة . هبّ واقفاً . فتح شباك الغرفة . أعادته جلبة الشارع

الى الحيـاة بصخبهـا وضجيجهـا . أصـوات مختلطـة غير متجانسة . زعيق . صراخ . عراك . صفير . صياح . ثم فتح باب الغرفة ، فإذا بصوت زوجته تنادي عليه . وحين فتح الباب هرولت اليه ، قائلة :

ـ ظننتك نائماً .

ـ . . . .

ـ مابك ؟ .

ـ لاشيء .

ـ تبدو مرهقاً .

ـ صداع خفيف .

أعمل لك شاياً ؟ .

ـ لو سمحت .

وحين دخلت بقدح الشاي ، وجدته ممداً على الفراش ، وفي سبات عميق . أيقظته بعد لأي ابتسامة حانية زرعها الحب على شفتيها .

ـ أنسيتَ يا رجل ؟ .

ـ . . . .

ـ ينبغي أن نفكر من الآن في حفل خطوبة غادة . لم يبق على الحفل إلا أسبوع . فكر معي في الترتيبات اللازمة .

ابتسم . وشكر الله على الأريحية التي واتته الآن . وأوشك أن يبوح بقرار الطبيب . ولكن زوجته قطعت صمته قائلة :

ـ يبدو أنك سبقتني وفكرت في الاستعداد للفرح ,

تملى في عينيْ زوجته الفرحتين ، وقال :

ـ نعم ، هو كذلك . فرح غادة أهم من كل شيء .

وتراقصت الفرحة الغامرة في عينيه ، من خلال دمعتين حارتين انحدرتا على خديه رغما عنه . ونجح في إخفائهما عن زوجته .

١٩٧٧

دمعة على عصفور

آخر ما توقعه المعلم سلطان ، صاحب محلات الجزارة الكبرى ، هو أن تعتل حورية . من الأمور الطبيعية ، أن يمرض الإنسان ، هذا صحيح ، ولكن عروسه الشابة الجميلة ، التي زفت إليه منذ ثمانية شهور فقط ، لم تشك خلالها من مرض أو علة . وحتى اعتلال صحتها لم يعرف له سبب واضح . قد تشكو من صداع ، أو فقد شهية . وقد تعزف عن الكلام ، لائذة بالصمت المبهم . ومالت بشرتها للإصفرار والشحوب .

كاشف الأقارب بحالها . لم يعد يطيق الكتمان . وينهي كل قول بجملة واحدة لا يغيرها :

- لم أحرمها من شيء . الخير كثير . وكل طلباتها مجابة .

الخواجة سمعان الجواهرجي ، يشتكي من عصفوره
الزاهد في الطعام . يضع سمعان عصفوره الجميل داخل قفص
معلق في أحد أركان دكانه الصغير . يقدم له الطعام والشراب .
ضايق السلطان ماألف عليه سمعان من حزن مقيم على
عصفوره المريض . قال :

ـ عصفور صغير يحزنك كل هذا الحزن . فماذا أفعل أنا ،
وحال زوجتي لا يرضيني ؟ .

ـ أعرضها على طبيب . .

ـ عرضتها على اثنين . أجرت تحاليل ، وتناولت أدوية ،
ولا فائدة .

ـ اخرجا للتنزه . تغيير المكان مفيد .

ـ هذا ما أفكر فيه . .

مد سمعان يده من بين فتحات القفص ، وحاول تحريك
العصفور . قال سلطان :

ـ يا خواجة افتح القفص للعصفور . . لو طار سيشفى .

ـ لكنه لن يعود إلي . . .

حكى سلطان عن حدبه على حورية . . يحضر لها كل
طلباتها . . ولا يغضبها بكلمة سوء .

ثم تنبه الى العصفور فقال :

ـ العصفور لازم يطير يا خواجة .

سأل سمعان ، وهو يفحص رجل العصفور العليلة :

ـ هل غضبت منك ؟ .

ـ لا أظن . .

ـ ربما تغضب من أشياء ، قد لا تكاشفك بها .

ـ لست أذكر أني أغضبتها .

ـمن طبيعة الإنسان أن يغضب .

يشعل لفافة ، ويقول لنفسه : « ربما يا سلطان فارق السن هو السبب . انها بنت السابعة عشر ، وأنت تجاوزت الأربعين » . تنهد . ثم قال لسمعان :

ـ حورية بنت يتيمة . . غلبانة . . تفرح لو قلت لها كلمة حلوة .

ألقى نظرة على العصفور الهزيل ، وقال لسمعان في ضيق :

ـ يا أخي ، أطلق العصفور في السماء الواسعة .

ـ ان جناحيه لا يقويان على الطيران .

ـ كل شيء بالتعود .

ـ ألم تشك لك من شيء ؟ .

ـ ولا مرة . .

ـ ألم تطلب منك شيئاً ، فامتنعت عن احضاره ؟ .

كل طلباتها مجابة . . .

يشرد قليلاً ، ثم يردف :

ـ ودائماً ترضى بقليله .

يصمت لحظة ، ثم يستطرد :

ـ كانت عايـزة تعيش . كانت مقهـورة في بيت عمهـا . عمها هو الذي رباها . . بنت يتيمة ، غلبانة ، مكسورة الجناح .

ويصمت من جديد . . وقد حط عليه حزن مفاجيء .

* * *

ذهب بها إلى مساجد الأولياء والصالحين . وصحبها الى مساجد السيدة زينب والحسين والإمام الشافعي . وقام برحلة الى الريف ، حيث قضى أسبوعاً في ضيافة أولاد عمومته .

ونجح ذلك في تحسن صحتها قليلاً . لكنها سرعان ما ارتدت الى ما كانت عليه من كآبة واعتلال . قال الأطباء كلمتهم . . حورية ليست مصابة بأي مرض عضوي ، مجرد حالة نفسية ليس للطب يد فيها .

كل صباح ، ينقدها مصروف اليوم . وفي آخر المساء ، يعود حاملاً كيس الفاكهة . البيت ـ بيته ـ لا ينقصه شيء .

وفي الليل ، اذا انحسر الغطاء عن جسدها ، تمتد يده الى الغطاء ، ويطبع على جبينها قبلة حانية ، بينا هي مستغرقة في النوم .

يذكر يوم أحضر لها ثوباً جديداً ، وألبسها اياه ، استطارت به فرحاً ، قرأ الفرحة في عينيها ، ثم خبا بريقها سريعاً .

قال له القائلون أن حبسة البيت هي السبب ، فاعتزم أن يزور عمها ، عساها وهي بين أقاربها تستشعر الطمأنينة .

وكانت جلسة عائلية مرحة ، شاركت فيها بكلمات قليلة . اهتم عمها بسلطان ورحب به . تبادل معه أطراف حديث ضاحك مرح . تبودلت السجائر بينهما ، مع أقداح الشاي . أما زوجة العم ، فشغلت حورية معها في إعداد وجبة عشاء .

وفي المساء المتأخر ، عاد سلطان وزوجته ، عروسه الشابة ، وقد أحس بالرضا والحبور . سألها رأيها في الأمسية ، قالت متجهمة :

ـ كان عمي يشعرني دائماً بأني عبء عليه .

ـ الآن أنت زوجتي . .

فرنت اليه بنظرات صامتة ، لاتنبيء عن شيء مفهوم .

ويبدو أن المعلم سلطان أراد أن يريح نفسه من عبء ثقيل ، فأرجع ماهي فيه من حال الى طبيعتها . . هكذا طبعها . . طبع حورية . . وينبغي ألا يحفل بشيء ، وأن يتقبل صدودها ، أو صمتها ، بأنه جزء من طبيعتها .

باح لسمعان بهذا الخاطر ، وبدأ يختط لحياته خطها المعتاد ، وعلى حد قوله لسمعان :

ـ أريد التركيز على الجزارة ، مصدر رزقي .

وانشغل سمعان عنه بعصفوره المريض . ويبدو أن حال العصفور يزداد سوءاً يوماً بعد يوم ، فيزداد سمعان حزناً واكتئاباً .

ذات مرة ، قال سلطان :

ـ أعجب لحالك . كيف تأسى على عصفور صغير ؟ .

تستطيع أن تأتي بعصافير أجمل منه .

ـ انه عصفوري الذي ربيته واعتنيت به .

وأردف :

ـ منذ ماتت زوجتي ، وأنا أربي هذا العصفور . خصصته برعايتي وعنايتي ، فماذا دهاه ، وقد اصطفيته صديقاً يثير البهجة في عالمي الحزين ؟!

ـ حبسة القفص هي السبب . . صدقني . .

قدم له الطعام ، فأحنى رأسه عن غير رغبة ، والتقط حبة ، ثم أشاح برأسه .

* * *

قرب منتصف الليل ، بينما كان سلطان مشغولاً بعدِّ أوراق مالية ، هي عائد اليوم ، أتاه سمعان مضطرب الخطو ، متلاحق الأنفاس . . قال صائحاً :

ـ العصفور يا سلطان . .

ـ مابه ؟ .

شخص الحزن في مقلتي سمعان ، وانخلع قلب سلطان . .

ـ العصفور مات . .

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله .

تمدد العصفور الصغير ، على أرضية القفص ، وساقه المعتلة مبسوطة . وفي ثوان ، أصبح العصفور قطعة جامدة .

اكتأب سلطان . جال بخاطره هاجس مخيف ركض الى البيت وفي قلبه خوف ، وأسرع الى سرير حورية ، ألفاها نائمة . . أيقظها ، فارتفت أهدابها ، ونظرت إليه نظرات حيرى بين اليقظة والمنام . قال ملهوفاً :

ـ كيف حالك ؟ .

ـ كويسة . . .

احتضنها ، غامراً وجهها بالقبلات

ـ أحبك . . .

ابتسمت حورية ، مندهشة لما قال . لم ينطق الكلمة من قبل . مدت شفتيها ، تطبع قبلة على خده . قال وهو يطوق بذراعه خصرها :

ـ تصوري . . عصفور الخواجة مات اليوم .

ثم أردف متنهداً : .

ـ مسكين الخواجة . . بكى عليه متألماً . .

وقال محدثاً نفسه :

« ويحي . . وأنا أيضاً أبكي لحال عصفوري . .
حوريتي . . » .

وجمدت دموع الألم في مقلتيه ! .

١٩٨٠

قلبي على ولدي

قدم الى مكتبي رجل مسن ، يحمل بيده المرتعشة خطاباً . تجاعيد السنين رسمت خطوطها على وجهه الأسمر . صوته واهن كأنه صادر من جب عميق . قدمه لي ساعي المكتب . . قد أتى الرجل ليسأل عن ابنه الموظف بادارتنا ، والمسافر في بعثة خارج القطر . ابنه عبد المحسن يشغل مركزاً مرموقاً ، وذو خلق قويم . الخطاب الذي بيده ، وصله من عبد المحسن . رحبت بالرجل ، وقدرت أبوته التي دفعته للإطمئنان ، وطلبت له شاياً .

قال وفي كلماته شيء من القلق :

ـ لم يصلني غير هذا الخطاب ، الذي كتبه منذ أكثر من شهرين .

ـ اكتب له . . واطمئن . . انه بخير .

ـ كتبت له خطابين ، ولم يصلني الرد .

ـ تعرف أنت ظروف البريد .

ـ أمه لا تنام الليل .

ـ لا تقلق .

ارتشف الشاي ، ثم قال بصوت لم تهزمه معارك الحياة :

ـ أبي ، رحمه الله ، أذكر له كلمة ، كان دائماً يلقيها على مسامعنا : « لي ابن ، وليس لي أب ! » .

شدتني العبارة .

وارتسمت علامات الدهشة على وجهي .

استرسل يشرح معناها . .

ـ يكلف الرجل بابنه ، يهتم بشؤونه ، ويقلق عليه ، وقد لا يحفل بأبيه ، أو يسأل عنه .

شاقني حديث الرجل الطيب . اعترتني هزة من الأعماق .

قلت مصدقاً لكلماته :

ـ يقولون : قلبي على ولدي انفطر ، وقلب ولدي عليّ حجر ! .

تذكـرت أبي . نعم ، يا أبـا عبد المحسن ، حديثك أثار شوقي لرؤ ية أبي .

كم من المعـارك خاضهـا من أجـلي . . وكم من الهمـوم حملها عني ، وكم من العقبات أزاحها عن طريقي .

وكادت عيناي تبكيان . .

قبيـل زواجي ، أذكـر له فرحته الغامرة بالشقة الجديدة ، وسعيـه الحثيث من أجـل تشطيبها وتأثيثها ، واصراره على وضع اللمسات الأخيرة بنفسه . قدرت جهوده ، وان لم يدع لي شيئاً أقـوم به ، كأن أمـر الـزواج لا يعـنيني في شيء ، كأن أبي هو العريس المتلهف على يوم زواجه ! .

وعند ترك بيت أبي ، صاحباً عروسي الى بيتنا الجديد ، شد على يدي مصـافحـاً بعزم الرجال ومضائهم . واحتضنني في قوة ، مسدياً نصائحه . بكت أمي لفراقي ، بينما وقف أبي رابط الجأش ، تطل الفرحة من عينيه ! .

فما بال أبي قد غاب عني شهرين كاملين ؟ . كان يزورني أسبـوعيـاً . أواه ، كلمات والد عبد المحسن ، أثرت في نفسي . قلت لنفسي :

لابـد أن أزوره ، وأطمئن عليـه ، وأخيب زائري فيـما قال . ألا ينفطـر قلب الابن على أبيـه ؟ . أبدأ بزيارته ، تقديراً واحـترامـاً . قد فعـل أبي الكثير من أجـلي . فما بالي لا أحـرك ساكنـاً وأنتظـر قدومـه مثلما عودني ؟ . ربـما أصـابـه مرض ، انه يشكو من ارتفاع الضغط . هو لم يرسل في طلبي . لتكن المبادرة من جانبي .

مازلت أذكـر لأبي حرصـه كل عام على معـرفـة نتيجـة امتحاني بنفسه . . فيبشرني بالنجاح اذا نجحت . . ويشد من عزمي اذا رسبت ، ويقول مطيباً خاطري :

ـ طول العمر ، يا ولدي ، يبلغ الأمل .

مازلت أحفظ هذه الكلمات .

قد يحزن أبي ، قد يغضب ، قد يعـتريـه هم . . لكنـه دائماً يزيل عني حزني وغضبي وهمّي . . فما بالي أجحد فضله ، أنتظر مجيئه رغم اعتلال صحته ! .

الضيف الـزائـر ، يحتسي الشـاي ، وما زال يسرد حديثه عن ولده المسافر ، وقلقه عليه . وما زلت أطمئنه على أحواله . وتقفـز الى الخـاطـر كلماته البسيطة ، التي توارثها عن أبيه . . لي ابن ، وليس لي أب ! .

لا يا أبي ، ليس كل الأبـناء يجحدون فضل آبائهم .

تعـود بي الـذاكـرة الى الـوراء ، حين طلبت منـه سداد مصـاريف المـدرسـة ، وشـراء كتب ومـلابس . كان يعـاني من ضائقـة ماليـة . أبي نجـار بسيـط . فإذا به يبيـع قطعـة أثاث ، ويدس الجنيهات في يدي .

هذا هو أبي . .

عدت في المسـاء . أخـبرت زوجتي بضـرورة زيارة أبي ، فحددنا يوماً . لكن اليوم يأتي بشواغله ، و تمر أيام وقد انصرفت عن تحقيق ما انتويت .

وذات مسـاء ، فوجئـت بأبـي يزورني ، ويـسأل عن أحـوالي ، وقـد صحبتـه عربـة نقـل عليها سرير صغير ، للوليد المنتظر ، قال وقد تهلل وجهه بالبشر :

ـ صنعته بنفسي . .

أبي الطيب ، قد صنـع للوليـد سريـراً خشبياً أنيقاً ، بعد أن أحس بأنني أدبر مبلغاً لشرائه .

و . . ارتسمت السعـادة على وجهـه ، لا سيـما حين قرأ الفرحة في عيني ، وفي عيني زوجتي .

ـ هذا السرير . . منعني عن زيارتك ، حتى انتهي من صنعه .

وانتشيت بفرحة غامرة . . .

أمـا زلت يا أبي ، تقـدم تضحيـاتـك من أجلي ؟ . . أما زلت يا أبي ، برغم كبر السن وأمراض الشيخوخة ؟ . أما زلت ؟ . . :

١٩٨٠

خصلة شعر

أعلنت الخطوبة . .

تعرف على فتاته عن طريق سيدة لها صلات واسعة .

طيلة الثلاثين عاماً ، لم تكن له علاقة بفتاة . ولما حان الوقت المناسب للزواج ، أحس بحاجته الى فتاة يبدأ معها الطريق من أوله . ويمكن أن يولد الحب وينمو بالمعاشرة والمشاركة في الآلام والآمال . هذا رأيه . واطمأن للطريق الذي رسمه لمستقبل حياته .

فيفي . . . اسم جميل . سمراء الى حد ما ، لا بأس . المهم خفة الدم . جسمها ممتلىء قليلاً . أنثى ناضجة ، فهل تغنيه عن كل بنات حواء ؟ . . ربما . . لا تتردد . . لن تجد يا محسن المرأة التي تغنيك عن كل نساء العالم ، هذا وهم ، المهم أن تَقنع أو تُقنع نفسك بواحدة .

أعجب بالخصلة النازلة على الجبين ، التي شكلت مع شفتيها المكتنزتين الهامستين نوعاً من الشقاوة والطيبة معاً . تبادل معها أطراف الحديث . تعمل فيفي بأحد البنوك . عظيم . لا اعتراض على شيء . عروس مناسبة حقاً . ولكن . . قلقت أمه ، ونصحته بالتريث . العجلة من الشيطان يا محسن . زادته نصيحة أمه إصراراً على موقفه . يعرف عن أمه حذرها وحرصها . وهنالك أمور تتطلب سرعة البت .

وبعد الخطوبة . . هام حباً بفتاته . ترددا على دور السينما والمسارح والحدائق والنوادي . وتعلقت به فيفي . لم يعكر صفو أيامه سوى ما حدث عند شراء الشبكة ، قبل الخطوبة بأيام . . سأله الصائغ عن اسم فتاته لينقشه على الدبلة ، أجابه :

- فيفي . . .

قالت معترضة :

- لا . . . اسمي فوقية .

عقبت أمها :

- فيفي اسم الدلع .

وضحكت قليلاً .

فوقيــة ! . لماذا لم يصــارحـوه بالاسم الحقيقي ؟ . هذا الأسم لا يروق له . قد يكون ما حدث شيئاً عابراً ، لكنه شكل علامـة استفهـام ، تقلقـه من حين لآخر . وأصر على أن يناديها بفـيـفـي . . بهذا الأسم اللطيف . . وحتى وسـط أقـاربـه ومعارفـه ، حين يسألـونـه عن اسم عروسـه ، يجيبهم « فيفي » . . . وأرضاه هذا الاسم .

وبرغم لقاءاتهما ، كتب رسائل الغرام الملتهبة ، ويضمن أحـاديثـه عبـارات الإعجـاب . الخصلة النـازلة على الجبين ، تكسب وجهها لماحية وجاذبية .

كلما أتى لزيـارتهـا ، يظـل ينتظـرهـا طويـلاً في بهو الاستقبال . قال لها ذات مرة :

ـ أتمنى أن تستقبليني فور حضـوري ، كما أنت . . ولـو بجلباب البيت .

ـ جرت العادة أن أرتدي ثوبي ، وأجلس الى المرآة لأتزين .

ـ لا تهمني الزينة .

أرتج عليها قوله . هل يجرح كبرياءها ؟ .

ـ لابـد أن أتـزين قبـل أن ألقـاك . هكذا تعودت البنات وهن يستقبلن الخُطّاب . استسلم لمنطقهـا . وان كان في أعماقه

يعتقـد أنهـا تتعمـد أن تتركـه ينتظـرها حتى يزداد شوقه . منطق الأنثى . لا ضير .

ارتاحت لمعشره . لاسيما أنه يغدق في هداياه ، ويكثر من زياراته ، ويتباهى بها بين أقاربه ، ويحرص على الخروج معها . مما جعـل فيفي توقن أنـه يحبهـا ، وأن حبـه يزداد يوماً بعد آخر . فاستطارت بهذا الحب ، وأشاعت قصته بين صديقاتها ، وباتت لا تنـام الليـل إلا بعـد أن تقصَّ لأمهـا شيئـاً من سعـادتهـا . فاستبشـرت الأم أخـيراً ، وباركت الزواج . وأعلنت لابنتها أن محسن أصبح ابنا لها ، وتباهت به بين جيرانها وأفراد عائلتها .

لكن فيفي المتيمـة بحبهـا ، قد أصـابها شيء من الشرود والقلق . . مخاوف وهـواجس ووسـاوس ، تتشـابـك خيـوطهـا وتصـير نسيجاً متماسكاً لا تقوى على تمزيقه أو تقطيعه . وأحياناً تقول لنفسها : « إنها سعادة مفاجئة . . قد يخبو بريقها فجأة ! » .

ما با لها تخشى أن تنقض حدأة ماكرة من سماء المجهول ، وتلتهم عصفور الحب الآمن في قلبها ؟ .

أختها تزوجت ، ودام الزواج ثلاث سنوات ، ثم تقوض صرح البنيان ، وكان الانفعال .

محسن لا يعـرف أن أختهـا مطلقـة . قالـوا له أن زوجهـا يعمـل بدولـة عربيـة . ويـرسـل لها مبلغـاً من المـال كل شهر .

صارحت أمها بأن الكذب لا يفيد ، فقالت لها :

ـ هي كذبة بيضاء

ـ واذا انكشفت ، يسودُ بياضها .

ـ محسن سيتـزوجـك أنتِ ، وليست له مصلحـة في أن تكون أختك متزوجة أو مطلقة .

لم تسترح لهذا التفسير . أصرت ـ وهي جالسة معه على ضفاف النيل ـ على مصارحته بالحقيقة .

أعجب لصراحتها . لكنه في دخيلته أحس بضيق . مثلما قالـوا له أن عروسـه اسمهـا فيفي وأصل الاسم فوقية . ثم يفيق لواقـعــه . إذا كان لابـد يا محسن من المنغصـات كي تستقيم الحياة ، فما يعتور الخطوبة ، ليس إلا منغصات تافهة ، وينبغي ألا تحفل بها .

وذات ليـلة ، أصـاب فيـفـي قلق عارض ، لا تدري مصدره ، حفزها الى أن تقول :

ـ إني خائفة

ـ مني . . .

ـ لا أدري .

ـ ربـما تصورتِ أنني رجل شرقي ، يتزوج ويحسب امرأته

جزءا من أثـــاث بيتـه ، يتصـرف بها كما يحلوله . يأمـر وينهى ، يقسو ويحنو ، كيفما تحركه الأهواء .

بعد صمت عميق . . . قالت :

ـ وربـما تصـورت أنـك ستـتركني فجأة ، ويصير ما بيننا شيئاً من الذكرى ، وتكون أحلامنا كأحلام العصافير .

ـ لم التشاؤم ؟ .

ـ لست متشائمة . لم أشعر أني مطمئنة إلا وأنت بجانبي .

تريضـــا ذات مســـاء على ضفـــاف النيـــل . تشـابكت أصـابعهـما ، وتعـانقت أحـلامهـما . تدلت خصلة الشعـر على الجبـين ، داعبهـا الهـواء ، فتطاير الشعر قليلاً . تمتد أناملها من وقت لآخـــر لتســـاوي الخصلة . أعجب بأنـاملهـا وهي تصلح خصلتهـا . رنـا الى الجبين ، يدفعه شوق جارف الى طبع قبلة خاطفة على وجنتها .

لكنـه بعـد ذلك ، لمح آثار جرح غائر على جبينها . . في نفس المكـــان الـذي تنـزل عليـه ستـار الخصلة . . تخفيـه عن العيون . غضَّ طرفه ، ولم يقل شيئاً .

ويا لها من خصلة شعر ! .

يغتم الآن لمرآها ، خصلة الشعر هذه ، التي تخفي جرحاً

غائراً . تخفي الوجه الآخر لفيفي ، أو فوقية .

لم يقـو على مغـالبة النفس ، فما ان يجمعه بها مجلس حتى يديم النظر الى خصلة الشعر ، أو الى الجرح الخبيء ، الغائر في جبينها . قد أصابه جرح آخر ، جرح نفسي لا يقوى على علاجه .

ذات مرة ، قال لها :

ـ بودي أن أنكش شعرك ، وأقلبه الى فوضى .

تبتسم . . .

ـ ثم أعيد تمشيطه ، وترتيب خيوطه .

مرة أخرى ، قال لها :

ـ لماذا لا تغيري تسريحة شعرك؟ .

ألا تعجبك ؟

ـ خصلة الشعر لا تروق لي .

أنسيت أنها كانت تعجبك ؟ . رسائلك قالت لي ذلك ، كلماتـك التي قلتهـا لي مراراً . . دائـماً تقـول لي : « فيفي . . تسريحة شعرك تزيدك جمالاً ، لا سيما هذه الخصلة » أنسيت ؟ .

لم أنس .

ـ ربما أنتَ لاتثبت على حال .

وأحست بقلق .

زيـاراتـه تباعدت . كل أسبوع مرة ، ثم كل أسبوعين ،
بعد أن كان يزورها يومـا بعد يوم .

تأكد لها أن خصلة الشعر هي السبب . وأنه يريد أن يراها
كما هي . أعلنت لها أختها فايزة ذلك ، قالت :

ـ لم يكن هناك داع للخصلة .

ـ أمي نصحتني . .

ـ هذه أمور لا تعجب الرجال .

ـ إنه يكرهني الآن ، ويضايقه هذا الجرح اللعين .

وبكت طويلاً في حضن أختها . . .

*　*　*

أتـاهـا في المـرة الأخـيرة بعد غيبة شهر . فرحت لمجيئه .
عقصت شعرها لأعلى ، حتى تبدو ندبة الجرح واضحة .

تحدث عن نفسـه طويلاً . يعجب بالصراحة والوضوح ،
يمقت اللف أو الـدوران ! . . قال انـه يحب لحيـاتـه أن تسير في
خط مستقيم ، لا يشوبه اعوجاج .

أحست فيفي أنه قاس في كلماته ، وأنه يجرح كبرياءها قاصداً متعمداً . استحلفته أن يغير مجرى الحديث ، ويسمعها كلمات حب . تعمد أن يناديها بالاسم الأصلي (فوقية) . . بعد أن كان ينطق (فيفي) منغمة ، وبصوت رقيق . بات يناديها بـ (فوقية) وفي صوته شجن .

اهتزت تيجان الحب ، تزعزع عرش الحب الذي تربعت عليه ، ملكة مزهوة في انتظار حفل التتويج .

قضى معها وقتاً قصيراً وهمَّ بالاستئذان ، متسرعاً متعجلاً ، ولم تفلح في تمديد الزيارة ، ولم يعدها بلقاء جديد . .

ارتمت على فراشها باكية بكاء مراً .

فيا لها من خصلة شعر ! .

الجرح الغائر فوق حاجبها الأيمن ، قد أحدث جرحاً في قلبه.انطوت فيفي وقد اسودت المرئيات في ناظريها ، لم تعد تطيق مجالسة أحد . ظلت أسيرة غرفتها لا تخرج منها إلا للذهاب الى العمل . حتى الطعام تأتي به أمها . . وكلما حاولت الأم تطييب خاطرها ، تنخرط في بكاء متواصل ، وتندب الحظ ، وتلعن المقادير . تخلو لنفسها ، تجلس قبالة المرآة . . ترفع شعرها ، تديم النظر في الجرح اللعين . . تبكي . . آه لو يجيء !

ذات يوم ، يبـدد سحب الشتـاء التي تلبـدت في سماء حيـاتهـا ، ينشر الدفء في عروقها . . يجفف الدمع في مآقيها ، يضيء شموع الأمل من حولها . آه لو يجيء ! . .

ترهف السمـع . . دائمـاً ترهف السمـع . . الى رنـين جرس الباب . . ربما . . يطير اليها على جناح الشوق ، وقد استبدَّ به الحنين .

وقتـما يجيء ، ستصـارحـه بكـل شيء . آه لو تجيء يامحسن ! . وقتئـذ . . ستعـرف أن هذا الجرح بسبب سقوطي من على السلم ، منكفئـة على وجهي . كنت في السـابعـة من عمـري . ما زلت أذكـر . . وشجّت جبهتي . . أسعفـوني ، ولكن بقي أثـر الجـرح في جبيني وفي قلبي . انـه جرح سطحي يا محسـن . حقـاً ، قد مسّ كبر يـائي كفتاة تزهو بجمالها . لكن ما حيلتي ؟ » . ستقـول له ذلك ، وتنهي أزمتها العارضة . وقتما يجيء ، ستضـع النقـط على الحـروف ، وتحكي تفـاصيـل ما حدث ، عندما كانت طفلة . . . و . . وظلت منصتة على أمـل أن تسمـع رنين جرس الباب . لكن الجرس يطلق رنينه من وقت لآخر ، دون أن ينفرج الباب عن خطيبها محسن . وفي كل مرة ، تعـود لأحـزانهـا المـريـرة ، ولم يخطـر ببالها أن الجرح سبب الآلام . ما ذنبها ؟ .

وبعـد أيـام ، أتـاهـا خطـاب غامض ، لم تفهـم منه شيئاً محدداً ، أعـاد فيـه كلامـه عن الـوضوح والصراحة ، وكرر كلمة

الصـدق مرات ومـرات . . فزادهـا الخطاب حزناً على حزن ، وهمًا فوق هم .

ولما أحست الأم أن كبرياء الأسرة قد سفح ، سارعت الى فصم الخطوبة من جانبها بعد انقضاء شهور ثلاثة دون أن يسأل عن خطيبته .

وعانت فيفي من ليالي القهر ، دامعة العينين ، نادبة الحظ العاثر .

أمـا هو ، فلم يسلم من تأنيب الضمـير ، ولوم النفس . أيترك خطيبته بسبب آثار جرح قديم على جبينها ؟ . يعود ليقول لنفسـه : لم يضـايقني الجـرح ، انما ضايقني اخفاؤه عني . مثلما أخفوا عني اسمها الحقيقي ، وأخفوا عني طلاق أختها ، وأخفوا عني . . . وأخذ يذكر كل الأشياء الصغيرة العابرة التي شاءوا أن يخفـوهـا عنـه ، كيـما يسـير الـزواج في خطه الطبيعي . يعود يحدث نفسه . من الأمور الطبيعية أن تتلهف الأم على تزويج بناتها .

يا لها من خصلة شعر ! .

أيـترك خطيبتـه من أجـل شيء تافـه ؟ . فما بالها بمرض القلب الذي يعاني منه ، وأخفى أمره عنها ؟ .

واستباحت مشاعره قوارص الندم .

شاء أن يوصل ما انقطع ، ويعود . . فأوصدت دونه الأبواب . جاهد ليزيل آثار القطيعة ، فانسدت كل السبل .

حاول أن يدبر لقاء صدفة معها ، في العمل ، أو أثناء غدوها ورواحها . . كي يعتذر . . فأوصدت دونه كل الأبواب . ألفى قبالته فتاة عنيدة تحرص على بقايا كبرياء الأنثى . باغتته فيفي بصورتها الجديدة ، أو التسريحة الجديدة ، حيث رفعت الخصلة النازلة من على جبينها ، وبدا الجرح واضحاً جلياً للعيان . فما أتفه ما ذهبت اليه نفسه ، إذ رأى وجهاً عادياً ، وأنفاً شامخاً ، ونفساً أبية . . ونظرات من عينين منتصرتين !

ولكن . . ما كان قد كان . .

فيا لها من خصلة شعر !

زادت آلام القلب المريض ، وتردد على عيادات الأطباء ، واستسلم للاشعات والفحوص والرقاد الطويل ، طلباً لراحة القلب العليل .

١٩٨٠

القفص الخالي

عدت من ترحالي . مشتاقاً يؤوب الى وطنه . لأول مرة ، أسافر بالطائرة ، أعلو . . والسحب تحتي كالقطن الناصع البياض ، سحباً متلبدة يزحم بعضها بعضاً ، وفوقي سماء زرقاء صافية .

عدت من ترحالي ، مؤمناً بأن حياتنا لا تحلو إلا بالحب ، ليس أفضل من حب الإنسان لأخيه الإنسان .

عدت من رحلتي الصحفية ، مشتاقاً الى زوجتي ، وإلى بيتي الصغير .

تطوف برأسي خطوط عريضة لسلسلة مقالات ، عن البلاد التي زرتها في شمال أوروبا ، وانطباعاتي عن حياة

الأوروبي . ولكن رغبة جارفة تحفزني الى كتابة مقالات أخرى حول عظمة الحب بين البشر ، وما أكثر ما نكتب عن الحب أو نتحدث عنه ، وما أندر الإبقاء على جوهره في نفوسنا .

أرحت جسدي المتعب ، وضربت عرض الحائط كل ما يصخب برأسي من ضجيج الأفكار . وطفقت أحكي لزوجتي تفاصيل الرحلة ومفارقاتها وطرائفها .

وحين جلست الى مكتبي المجاور لشباك الشرفة ، ألفيت عصفوراً صغيراً وديعاً ، يقف على حبل الغسيل . تأملت العصفور الأخضر الجميل . لم أشأ أن أزعجه ، فيطير ، اكتفيت بتأمله من بعيد . وقدمت له الطعام والشراب ، فتناول حبة أو حبتين واكتفى .

راقني العصفور . حدبت عليه . خطبت وده في صمت .

حبال مودة تتسم بالشفافية ، امتدت خيوطها بيني وبين العصفور .

ضحكت زوجتي لما رأتني مولعاً به ، وقالت :

- ستصبح شاعراً .

- ما أجمل العصفور ! .

تضاحكت أكثر وقالت :

ـ سيأخذك العصفور مني .

ـ أتغارين من عصفور ؟ .

ـ ألا يروقك جماله ؟

وذات صباح ، أفزعني ارتطام بحصاة خصاص النافذة ، فهرعت أستجلي الأمر . ألفيت صبياً يصوب نباله بالحصى نحو العصفور . اضطرب في مكانه . بدا لي كأنه يتنبه من حلمه الجميل ، ويفيق لواقعه . خرجت أزجر الصبي ، وألعن شقاوته ، وألقنه درساً . . لابد أن تحب العصافير مثلي . ألا ترى أيها الغرّ هذه الألوان الزاهية البديعة التي حبا الله بها العصفور ؟ . ألا يروقك منظره مثلما يروقني ؟ . فلِمَ لا تحميه وتبقي عليه ؟ . أليس كالزهرة الجميلة تمتعنا وهي على الغصن ، بحسنها وعطرها ، وتذبل إذا نحن قطفناها من رياضها ؟ .

منذ ذلك اليوم ، لم يعد الصبي يقترب من شباكي ، كما قاطع هو وأترابه الشارع الذي أقطن فيه .

بعد أيام ، اصطحب العصفور عصفوراً ثانياً . ونعمت بزقزقة العصفورين .

أحسست بسعادة غامرة . ان هذين الطير ين يتوددان إليّ ، ويأمنان بجواري ، وبدأت أكتب بضعة سطور عن

رحلتي . كانت متعتي لمرأى العصفورين الحبيبين ، تفوق كل ما تمتعت به في الرحلة ، وتفوق متعة الكتابة ذاتها .

بحت لزوجتي ، فكررت ما قالت :

- قريباً جداً . . ستمتعنا بأشعارك المحلقة في سماء الخيال .

وذات يوم ، وأنا عائد من عملي ، حرصت على شراء قفص جميل للعصفورين . .

خفت أن أحاول الإمساك بهما فيفران . ثم عدت أسخر من حذري ، انهما آمنان مستقران عند شباكي . ولم يتصادف أن أفزعا لاقترابي منهما . انهما هنا ينعمان بالأمان والسكينة .

قالت زوجتي :

- لابد من الحذر .

اقتربت منهما بحذر شديد . لم أحدث صوتاً ولو همساً . حبست أنفاسي . وبحركة مباغتة ، انقضضت بيدي على العصفورين ، وفي لمح البصر . . لأمسك بهما . . ولكن . . واحسرتاه ! . . قد ارتطمت كفي بالحبل ، دونهما ! . . قد طارا سريعاً ، وارتفعا عالياً في السماء الواسعة . تتبعتهما أنا وزوجتي ، حتى اختفيا تماماً عن أبصارنا . تألمت كثيراً لحرماني منهما . ليتني أبقيت عليهما . لم يكن هناك داع لوضعهما في

القفص . ها أنذا حرمت منهما . كيف يهربان ؟ . لماذا يهربان ؟ . العصفوران . الجميلان ، الحبيبان ، يا زوجتي ، قد كانا لا يأبهان ان أنا اقتربتُ منهما أو ابتعدت . . مَنْ الواشي ؟

ترى . . الى أين هما ذاهبان ؟ . . قد طارا بعيداً جداً ، في السماء الواسعة العريضة ، في الفضاء الطلق . ترى . . هل ييممان وجهيهما شطر البلد البعيد ؟ . وماذا بعد الطيران الطويل ؟ .

عدت أنظر الى زوجتي صامتاً ، واجماً . . ثم تحولت بنظراتي الى القفص الخالي ! . .

١٩٨٠

للملائكة أجنحة بيضاء

أقلق وفاء شجار طارىء بين أبويها . زعق الاثنان بكلمات قاسية ، وارتسم الغضب على وجهيهما . سهرت وفاء الليل بطوله ، راقدة على ظهرها ، محدقة في سقف الغرفة ، تستعيد ما حدث أمس . لم يواتها النوم الا مرغمة . كيف نامت ؟ . . غلبها النعاس ـ فيما يبدو ـ وسط زحام التصورات والمخاوف . تنام أمها بجانبها ، تغزو الدموع عينيها . تظاهرت وفاء بالنوم ، وكل حواسها مشغولة بحال أمها . سمعت نشيجاً متواصلاً ، يكشف عن ألم غائر في الصدر . لم تشأ أن تشعرها بيقظتها ، حتى لا تخفي مواجعها وتتظاهر بالمرح ، ثم تحتضنها وتنهال عليها ـ كالمعتاد ـ بالقبلات . ظلت وفاء مغمضة جفنيها حتى نامت أمها ، ثم نهضت وأحضرت منديلها الصغير ، مسحت

نهر الـدمـوع المنساب على وجنتي أمها كخيطين رفيعين ، كذلك مسحت غلالـة الـدمـوع المنعقـدة حول جفنيهـا . وطبعت قبلة حانية على جبينها .

تسللت من الفـراش ، ذاهبـة الى أبيهـا الراقد على كنبة استـانبولي ، بالغرفة المجاورة . لأول مرة ينام بمفرده . حرصت على ألا توقظـه . ألفت دمـوعـاً في عينيـه . مسحتهـا بمنـديلها الصغـير ، وطبعت قبلة على الجبـين . ووقفت حائـرة لا تدري ما تفعـل . علام الغضب ؟ . بدأ الخـلاف نقـاشاً بصوت عال وكلمات حادة ، ثم هدد كل منهما بترك البيت ، وتباعد كل عن الآخر .

وفـاء لا يتعـدى عمـرها السنوات الثماني . تذكر مدرستها عليـة ، ونصـائحهـا بألا يغضب أحـد أبـاه أو أمه . من يغضب أبويْه فقد أغضب الله . ولكن . . . ولماذا يتشاجر أبواها ؟ .

ألا يغضب هذا الله ؟ . حين تعود للمدرسة ، بعد إجازة نصف السنــة ، ستسأل مدرستهــا في هذا . أبلة عليــة تحبهـا كثيـراً ، سوف تشرح لها كثيراً من الأمور التي لا تعرفها ، وقد تقص عليها أقاصيص حلوة ، وتقول كلاماً جميلاً .

واتتها فكرة . . .

أتت ببكرة الخيط الأبيض الموضوع على ماكينة الخياطة . ربطت معصم الأب بالخيط ، وسارت بالبكرة وهي تحل خيوطها

الرفيعة ، حتى وصلت الى فراش أمهـا . قطعت الخيـط ، وربطـت طرفـه بمـعصم الأم . فرحت كثـيراً لما فعلت . هذا الخيـط الأبيض ، كفيـل بأن يجعـل الملائكة يدخلون عليهما وهما نائمان ، وينهون الخلاف . فإذا ما جاء الصبح ، يزول الغضب ويحل الـوئـام والصفاء . لن ينسى الملائكة واجبهم . أبلة علية دائـماً تقـول أن للمـلائكـة أجنحـة بيضـاء ، وأشكـالاً جميلة . المـلائكـة يحبـون السـلام والخـير والـرحمـة . بالتأكيد لن يرضيَ المـلائكـة ما حدث بين أبـويهـا . بالتأكيـد سيفرح الملائكة بهذا الخيط الواصل بينهما .

عادت الى فراشهـا ، وازدحمت مخيلتهـا بصـور بهيجة عن المـلائكـة ، ومـا ان استغـرقهـا النـوم ، وسـط أحـلامها الزاهية البيضـاء ، حتى رأت في الحلم ملائكـة . . فتيـات جميـلات يلبسن ثيـابـاً بيضـاء ، ويضعن زهـوراً بيضـاء على رؤ وسهن كالتيجان ، وبشرتهن بيضاء كاللبن الحليب .

تنفس الصبح ، فتقلب الأب على فراشه ، ثم تيقظ . .

استعاد ما حدث أمس . . لماذا ترد عليه زوجته بكلمات حادة . كان يمكن أن تتحـدث بكلمات هادئـة . هو لم يرد تلك الغضبـة النـكـراء ، والاتهـام المتبـادل . . ثم . . لماذا هدد بترك البيت ؟ . . أيمكنه أن يترك البيت حقاً ؟ .

صحت الأم . استرجعت شجـار الأمس . سببـه غرور

الـرجـل ، وتشبثـه بسطـوتـه على البيت . كان يمكن أن يخفف غلواءه . لم تشأ أن تطور الشجار بما قالت ، لكنها اضطرت ازاء جفـائـه وقسـوتـه ، وهي السبب لكل هذه المشاحنات . ثم ماذا عن ترك البيت ؟ . أتراها جادة فيما قالت ؟ .

تقلب الاثنـان في فراشهـما ، الألم غائـر في صدريـهما ، الصغـيرة غارقـة في النـوم . تنبه الاثنان الى هذا الخيط الأبيض الملفوف حول معصميهما . دهشا . ما هذا الخيط ؟ كيف التف حول المعصم ؟ . نهضـا ، سار كل منهـما مقتفيـا أثـر الخيـط .

شاءت الصـدفـة أن ينهضـا في نفس اللحظة ، ربما هي الأرواح تتناجى وتتلاقى . التقيا في منتصف الطريق ، وجهاً لوجه . .

ـ أهذا أنت ؟ . . .

ـ أأنتِ التي ربطتِ الخيط في يدي ؟ .

ـ ألا ترى أن يدي أيضاً مربوطة بالخيط ؟ .

ضحكت وفاء ، التي استيقظت على صوتيهما . . ففطن الاثنان الى أن الصغيرة هي السبب . .

ـ لماذا فعلت هذا ؟ .

ـ لأن الملائكة يجيئون في الليل ، ويجمعون بينكما .

ضحكا ، وفكا الخيط .

كلاهما يريد الصلح ، من يبدأ قبل الآخر ؟ . جمدت المشاعر . وراح كل منهما يعد طعام افطاره بنفسه ، ويأكل بمفرده . حاولت الأم استمالة وفاء لتأكل معها ، فرفضت وقالت :

ـ لا أريد أن آكل .

نادى الأب من الغرفة المجاورة :

ـ تعالي يا وفاء .

هرعت اليه قالت :

ـ لا أريد أن آكل .

رفع عقيرته مخاطباً زوجته :

ـ نادي على وفاء لتأكل معك ، هي لا تريد أن تأكل معي .

ـ تعالي يا وفاء .

رفضت . صممت في هذه المرة طالما هما مختصمان . بدآ يلوكان لقيمات ، بينا الصغيرة جالسة في ركن بالصالة ، تنتظر أن يعقد الملائكة مؤتمر صلح . أبلة علية أكدت أن الملائكة يحبون السلام والخير والرحمة . لن يرضى الملائكة ما حدث . ربما هم مشغولون في مكان آخر ، وحتماً سيطيرون سراعاً خفافاً

بأجنحتهم البيضاء ، ويحطون على شرفة الشقة ، ويزيلون الجفوة .

همَّ الأب بارتداء ملابسه تأهباً للخروج . تذكر أن وفاء لم تأكل . طلب من زوجتـه أن تقـدم لها الطعـام . وفاء لم تأكل . اضطـر الأب الى المكـوث بالبيت ، أصرَّ على اطعامها بنفسه ، عزفت عن الطعام وقالت لأبيها :

ـ لن آكل إلا اذا أكلتَ أنتَ وماما معي .

وقالت لأمها :

ـ لن آكل إلا إذا أكلتِ أنتِ وبابا معي .

اضطـر الأبوان الى الجلوس مع وفاء . تسابقت يداهما في اطعـامهـا . تسابقا في تقبيلها واحتضانها . انتشت وفاء وغمرتها الفرحة ، لاسيما حين تبادل أبواها كلمات حانية رقيقة .

عادت الصغـيرة تفكـر في الملائكة . . حتما جاء الملائكة والدنيا ليل ، هبطوا من السماء ، وأنهوا الخصام .

طبعت قبلة على جبين الأب ، وقبلة على جبين الأم . .

وطفق الأبوان يحدبان على ملاكهما الصغير . .

١٩٨١

حاجز الخوف

- ١ -

الرئيس مهيب الطلعة ، جهير الصوت ، مهيمن على كل شيء . لا يعيبه التصرف وتسهيل الأمور أو تعقيدها ، حسب أهوائه . الكل يخافه . نحاذر الحديث عنه في غيابه ، لئلا ينقل له أحد أعوانه . وإذا تخالفنا ، لجأنا اليه ، فيسوي الأمور . شاع بيننا أنه الكل في الكل . يعجبه ذلك ، يرضي غروره .

لست أرتاح إليه أو لتصرفاته . غير عادل في معاملته . اصحاب الحظوة هم أعوانه أو كما نقول رجاله ، أما نحن ففي

الظـل . يطلب منـا انجـاز الأعـمال ، والويل لمن يتوانى ورجاله مدللون مرفهون .

- ٢ -

شكـوى مقـدمـة للمدير ، عن سرقات حدثت . أصابع الاتهام تتجه إلى القسم الذي أعمل فيه . تحال إلى التحقيق . يسأل الـرئيس ، فيـؤكد ما جاء بالشكوى ، من أن عاملاً يشك في تصـرفـاته . . عامل صغير . . يتفانى في عمله . ذهلت . أيمكن أن تمتد يده للخامات ، ويخرج بها ؟ . انه حسن النية ، لكنه ليس من أهل الحظوة . إنه من المكافحين أمثالي .

استلمتُ الـرئيس ، جعلتـه يصغي لكلماتي ، ولايصدّني بمقولته الشهيرة : « كُنْ في حالك » . قلت له :

- انه مظلوم وبريء .

انطلقت الكلمات من أعوانه الملتفين حولي :

- أنتَ حسن الظن . .

- إنه ناعم الملمس . . .

- إنه يخفي مالا نرضاه على أنفسنا . .

لم ينبس الرئيس بكلمة واحدة . اندفع أحد أعوانه يقول :

- شهدت في التحقيق بأمانة ، قلت ما لا تعرفونه عنه .

ويــلي . . . كيف يتهم الــبريء ؟ . عندي أدلة تثبت براءته . ولكن . . كيف أتخطى حاجز الرئيس ؟ . كيف أهدم جدار الخوف ؟ .

- ٣ -

أقبلت زوجتي متضــاحكــة ، تروي مافعله ابننــا اليــوم . ابننــا طفــل الخامسة ، خطف لعبة ابن الجيران ، وخبأها مدَّعياً أنهــا لعبتــه . عاقبت ابني . أفهمتــه أن لعبــه هي اللعب التي أشــتريهــا . ولا يصــح أن يأخذ ما ليس له . قلت كلاماً كثيراً . زوجتي عاتبتني همساً :

- قد بالغت في تأنيبه .

صرخت في وجهها :

- لابد أن يعرف خطأه .

- - انه ولد صغير

ـ الهفوة الكبيرة يمكن أن تصبح . .

ـ كفاك تهويلاً .

نعم ، هفـوة طفـل صغـير ، لكنهـا البـداية . أنا أعلمه أبجـديـة التعـامـل . ما يحدث في العمل ، يجعلني أخشى على طفـلي من البـداية . ولم أسترح إلا حين أعاد اللعبة لصاحبها ، فأهديته لعبة أفضل منها .

تنفستُ الصعـداء . . فرحـة طفـلي باللعبـة ، وفـرحتي بطفلي . . أزالتا الضيق بصدري .

ـ ٤ ـ

زميـلي عامـل مكـافـح ، يربي صغـاره ، ويـرعى أمـه . مهذب القول ، مستقيم السلوك . نلقبه بالشيخ لورعه وتقواه . فكيف ينقلب الميزان ؟ . نفر من الزملاء يتهامسون ، يتشاكون . .

انه مظلوم . . فخّ ووقع فيه . .

لابـد أن ألتقي بالمـدير ، وأقول ما أعرف . حرام أن يقع زميلي ضحية . لكن السيد الرئيس يقف حاجزاً هائلاً بيني وبين المـديـر . الـويـل لي لو تخطيتـه ، يجب ألا أتخطى . ولكن ما

الجدوى اذا كان رئيسي هو الخصم والحكم ؟ ! .

زميلنا البريء يصرف الخامات من المخزن ، ونحن جميعاً نستخدمها . فكيف يتم بتبديدها ؟ [illegible] نصب بإحكام ، والشهود حاضرون لمجاملة الرئيس .

تعاظم القلق في نفسي . الرئيس لا يخشى المدير . يستمد قوته ونفوذه من صلاته بآخرين ذوي سلطان أقوى . وادّعى البعض أن محامي الشركة ، على صلة برئيسنا ، كذلك أعضاء اللجنة النقابية . . وأسماء أخرى ذكرت . هالني ما سمعت ، أدركت أن زميلي وقع ضحية .

- ٥ -

حدثنا خطيب المسجد عن الحق . لابد أن نكون طلاب حقيقة . العدالة لا تنتصر إلا إذا دافعنا عنها . ثم قال كلمة هزتني من الأعماق . .

ـ والساكت عن الحق شيطان أخرس . .

ألستُ كاتماً لكلمة حق ؟ . لابد أن أقولها . بملء فمي سأقولها . ليكن ما يكون . نعم ، الرئيس مسنود . ولكن ، كيف أربي ولدي على الصدق والإباء ، وأتغاضى عن سكوتي

على الضيم . لابـد أن أفعـل شيئاً ، أن أؤدي واجبي . قيل :
قل كلمتـك وامش . حرام أن يقـع بريء ضحيـة شرك محكم ،
ولا تسمـع كلمـة من منصف . لابـد من هدم الحاجز الذي بيني
وبـين المدير . لابد أن أتخطى الرئيس . سيغضب . . لايهم .
سينتقم . . ليكن ما يكون . أيا كانت النتيجة ، لابد أن أكسر
حاجز الخوف .

- ٦ -

المذكرة جاهزة بإمضائي . سهرت لوقت متأخر أكتب كل
ما أعـرف عن تبـديـد الخـامـات ، ومن الفـاعل الحقيقي . قد
أهـزم ، لكن ضمـيري سيسـتريـح . ذكـرت وقائع محددة . لم
أخش أحداً ، حتى الرئيس ذكرت دوره .
قال السكرتير :
- اترك لي المذكرة .
- لا . . . سأقدمها بنفسي .
نقـرت البـاب بقلب واجف . دخلت . حييتـه . كان
منهمكـاً في قراءة أوراق . رفـع رأسـه دهشـاً . لم يتـوقـع دخول
أحد . استأذنته ، انثالت الكلمات كطلقات مدفع . أفرغت كل

ما عنـــدي . تفهم المـوقف . أحسست به يحاصـرني بأسئلتـه ، فأجيبه . توقعت كل الأسئلة ، كأني أمام لجنة امتحان . قدمت المذكرة . قرأها باهتمام . . ثم كتب عليها بضع كلمات . .

فرحـت . تبـددت سحب الحـيرة التي سيطـرت على تصرفاتي . وتهدم الحاجز الذي أثقل كاهلي .

(١٩٨٢)

كاتيا

تحرك القطار من البلدة التي أقيم بها ، قاصداً لينينجراد . جلست وحدي داخل غرفة محكمة الغلق . تسع أربعة أفراد . عند أول محطة ، ولجت الغرفة عجوز ومعها طفلة لا تتجاوز سنها الثامنة . تنازلت عن سريري السفلي وصعدت الى العلوي ، كي أبعد عن العجوز والطفلة . وعبر زجاج النافذة ، تسليت بمنظر الغابات والثلوج البيضاء على السفوح والأشجار . طبيعة صامتة ، لا يبدو أثر انسان بها ، لكنها خلابة صافية .

كان توقيت سفري مناسباً . كنت موزع الخاطر ، ووالد خطيبتي الصارم الملامح الحاد القول ، يستبد بي ولا أدري لم ؟ . يحرص على أن يكون سيد الموقف . بإمكاني فض

الموضوع ، وليشمخ بكبريائه ، حينذاك سيشعر بالندم وعاقبة تصرفاته .

كثيراً ما أحدث نفسي : ماذنبها ؟ . لبنى تحبني . لكن تسلط الأب وعنجهيته . . « البنات كثيرات ياأبا لبنى . ان كنت أعجبت بلبنى وأتيتك خاطباً ، فلا تستغل الموقف » . لم أنطق بشيء . مجرد أحاسيس استقرت بأعماقي . وكادت تسلمني الى الشطط .

في الشهر الفائت ، سافرت الى روسيا . وكانت فرصة طيبة لتطبيب نفسي ، بالابتعاد عن أبي لبنى ، والاستشفاء مما سببه لي من آلام نفسية . ذات مرة ، شكوت حالي لزميلي بالبعثة :

ـ تصور . . يفرض عليّ أن أزور لبنى ، في ساعة معينة .

ـ تحمَّل .

ـ ويفرض قيوداً لا أطيقها . ويمنع لبنى من الخروج معي

تحمَّل .

ـ لا طاقة لي بالتحمّل ، حتى الساعة التي أزورفيها خطيبتي ، يُسيطر هو بأحاديثه ، ولا أملك سوى الصمت والاصغاء .

مدّت الطفلة يدها بقطعة بسكويت . شكرتها ، ألحت ، وقالت العجوز .

ـ خذ منها . . تفضل . . .

البنت لطيفة جميلة . البشرة بيضاء والشعر أصفر كأسلاك الذهب ، ولبنى بشرتها سمراء والشعر أسود فاحم . عينا البنت زرقاوان كالسماء ، وعينا لبنى عسليتان . صعدت الطفلة الى السرير العلوي ، قبالتي . وغطتها العجوز ببطانية . وراحت في سبات عميق . وانشغلت العجوز بكتاب تقرأه حتى غلبها النعاس . وظللت يقظاً ، لبنى في خيالي لم تزل . لم أشأ كتابة رسالة . تميزت غيظاً قبيل سفري . الأب ألح لي ، بأنه سيأتي لتوديعي بالمطار ، ولبنى لن تأتي . الأب يفرض قيوده وشروطه . رغم أنها تخرجت في الجامعة . بدت أسيرة . مرات ومرات أفكر في فض الخطوبة . يستنفرني أبوها بتصرفاته .

انسحب الغطاء عن الطفلة . مددت يدي لطرف البطانية ، وغطيت جسمها حتى أصابع قدميها .

مازال القطار يعبر الكيلومترات من المساحات الشاسعة ، بينما الغضب يتملكني . خطبت لبنى منذ ثلاث سنوات . والشمّة لم تنته بعد . يبدي الأب ضيقه وتبرمه . ماذا أفعل ؟ ظروف السكن صعبة . أيام عسيرة ، ولا نملك إلا الامتثال والصبر . لبنى أسيرة مقيدة . حين تقرأ إمارات

الـغـضب على وجهي . تغضب مني ، تحتـد . فأتـرك البيت متبرماً ، وأقسم ألا أعود . لكني أعود ، فالتسامح لغة الأقوياء .

استيقظت في السـادسـة صبـاحاً . لم أنم الا سويعات . استيقظت العجـوز والطفلة . أصـرت العجـوز على أن أتنـاول الشاي والفطور معها . سألتني الطفلة عن اسمي ، أجبتها :

ـ سليمان . وأنتِ ، ما اسمك ؟ .

ـ كاتيا . . .

ـ اسم جميل .

ـ شكراً .

سألتني الصغيرة :

ـ من أي بلد ؟ .

ـ من مصر .

اتجهت الى جدتهـا ـ عرفت فيـما بعد أنها جدتها ـ وسألتها عن مصر ، أهي البلد القريبة من أوديسا ؟!

أخـرجت كاتيـا منظـراً جميـلاً ، لوردتين حمراوين ، على أوراقهـا قطـرات كالنـدى ، وكتبت اسمي بالروسية ، بحروف منمنة واضحة . أهدتني المنظر . وقرأت :

« إلى عزيزي سليمان . . .

من كاتيا ـ عام ١٩٧٩ » .

فرحت بالكلمات البسيطة . هذا أقصى ما تستطيع أن تكتب . وبدوري ، بحثت في حقيبتي فعثرت على منظر لأهرام الجيزة . وكتبت مثلها :

« إلى عزيزتي كاتيا . . .

من سليمان ـ عام ١٩٧٩ » .

شكرتني الجدة والطفلة . أثارت أسئلة عن الأهرام . قلت كل ما أعرف . ونشأت ألفة محببة ، فرحت كاتيا بمنظر الأهرام ، وتعبيراً عن فرحتها ، أعطتني صورتها بعد أن كتبت نفس الكلمات . ولم أجد لدي سوى صورة واحدة بجيب المعطف ، الصورة تجمعني بلبنى في حفل الخطوبة . . أشرت الى الصورة بأصبعي :

ـ هذه لبنى . . خطيبتي .

قالت الجدة :

ـ رائعة الجمال .

وبتلقائية أخرجت كاتيا صورة فوتوغرافية وقالت ، وهي تشير بأصبعها الصغير :

ـ هذه كاتيا . . وهذه ماما . .

فرحت بالكلمات البسيطـة . يبدو أن الطفولة ينبوع حنان غامر ، وبراءة متناهية . أهدتني الصورة بينا الجدة تسألني متوددة :

ـ متى تتزوجان ؟ .

ـ منـذ ثلاث سنـوات ، أنتظـر الشقـة ، يبدو أني سأنتظر عاماً آخر وأكثر . .

ـ هذا كثير .

ـ أبوها متذمر . يريد الاسراع بالزواج .

ـ عنده حق .

ـ وما ذنبي ؟ .

ـ تزوجا في غرفة أو أي مكان . . .

لا تعرف العجوز مشاكل الزواج ، وما يستتبعه من مراسم ولوازم . . الشقة والأثاث والحفل والكماليات ، الى آخر القائمة الطويلة . ويبدو أنها لم تفهم . قالت مختصرة :

ـ كل ما أعرف ، هو الإسراع في الزواج . هذا خير لكما .

كلماتها بسيطة ، مثل كلمات كاتيا . هل يقترب عقل العجوز من عقل الطفلة ؟ مزيداً من الكلمات قلتها عن العرف والتقاليد . لكن العجوز لم تُعِرْ ذلك انتباها . وقالت :

ـ حين تتزوجها ، ويجمعكما فراش واحد ، ستنتهي مشاكلك .

همست كاتيا في إذن جدتها . ابتسمت الجدة . ماذا قالت ؟ . تسأل كاتيا عن المشكلة بين العرب واسرائيل ، وما يحدث في ايران . . حكيت التاريخ من ألفه الى يائه . أصغت الجدة وكاتيا . انتقيت الكلمات البسيطة ، واختصرت القول اختصاراً . يبدو أن همومنا تشغل كاتيا . « ما بك وهذه القضايا » قلت لنفسي . ثم استرسلت في الحديث ، وبين يدي صورة كاتيا وأمها . وقطعت الحديث ، حين أحسست أني أضجرتهما بنوازع القلق . تمليت الصورة وقلت .

ـ أمك رائعة الجمال يا كاتيا .

فرحت كاتيا . . وفرحت الجدة . .

ـ شكراً . . يا سيد سليمان .

أضافت :

ـ تعمل أمها في لينينجراد . نحن ذاهبتان لزيارتها .

انتشلاني من وحدتي . انخرطت في أحاديث شتى .
حدثتني العجوز عن حياتها وزواجها ، عن حبها القديم . أما
زالت تذكر حبها القديم . أما زالت تتغنى عشقاً للحياة ؟

أرنو الى وجه كاتيا الصافي الرائق . أطرب للكلمات
البسيطة العفوية . الحديث مع كاتيا ممتع وخال من الهموم .
حديث محبب للنفس . ليس ثمة قضايا ، انها طفولة متطلعة الى
المستقبل ، طليقة من قيود الماضي . استبشرت خيراً برفيقتي
الطريق . . العجوز بماضيها المتزاحم المليء بالأحداث
والتجارب والنبضات ، والطفلة بعينيها الزرقاوين المتطلعتين الى
سماء المستقبل . .

وودعتهما ، وحملت أمتعتي مع زملائي قاصدين الفندق .
وفي غرفتي بالطابق الرابع عشر ، جلست أرنو من النافذة الى
القباب الخضراء الأثرية . وأول شيء فعلته بتلقائية ، هو كتابة
رسالة حب وشوق الى لبنى . . وكانت رسالتي الأولى .

(١٩٨٢)

ثلاث رسائل غير سارّة

قوارص الندم تعاوده من جديد ، فتتوتر أعصابه . الليلة يحتفل بعيد ميلاده ، وحيداً في البيت الخالي . أمه ماتت منذ شهور ، وبقي جذع نخلة في صحراء مجدبة . قال لنفسه : لا مفر من الزواج . الفكرة مستبعدة حتى زمن غير بعيد . أسترجع شريط الأحداث للسنوات الخوالي ، كانت له علاقات عاطفية ، انتهت كل منها نهاية غير سارة . وأمه رحمها الله ، عرضت عليه بنات كثيرات ، لكنه يتعلل بسبب أو بآخر ويرفض . تعبت أمه كثيراً . فهذه سنها غير مناسب ، وهذه طباعها لا تتفق مع طباعه ، وهذه لون بشرتها لا يروق له ، وهذه والدها منحرف المزاج ، وهذه وهذه . . « أتعبتني يا ولدي سمير أنتَ لا يعجبك العجب » . وتنفض يديها حيناً ثم تعيد الكرة ، وتعرض فتاة أخرى . و« لا فائدة معك يا سمير » .

يبتسم ابتسامة ساخرة من نفسه . أحلامه متواضعة ، ولا يطلب المستحيل . يقارن أية فتاة باللاتي عرفهن ، باللاتي نسج خيوط أحلامه معهن ، ثم فشل وتحطمت قيثارة حبه غير مرة . حطمها بنفسه . لا يدري كيف . وتقوضت آماله ، وتباكى حبه الغارب .

هذه الليلة ، أهاجته الذكرى فآثر الوحدة . لم يَدْعُ أحداً من أصدقائه ، وآثر أن يجلس منفرداً يسترجع ماضيه . .

فيروز هي أول حب له . جارته . كان صغير السن . لا يفطن لأمور الحياة كثيراً . وكان منطوياً . يطل على حبيبته من الشرفة . يتقصى أخبارها ، ويقتفي أثرها ، دون أن يبوح بأحاسيسه . وتكتم هواه . . مرات قليلة تبادلا كلمات متقطعة ، كانت كفيلة بأن يسهر الليل بطوله ، ولا تسعه الأرض والسماء . كان تلميذاً في المرحلة الإعدادية . فيروز تقاربه في السن ، ولكن هل تبادله نفس المشاعر والأحاسيس ؟ . هذا ما لم يكن متأكداً منه . هام حباً ، ونظم الأغاني والأشعار ، محاولات بدائية عفوية . . ورأى ان فيروزه هي ملاك الرحمة . وذات مرة أهداها وردة . كان يوماً ساحراً قطف وردة حمراء من حديقة منزله ، ألقى تحية الصباح ، ومد يد بالوردة دون أن ينطق حرفاً . أجابته : شكراً يا سمير . تراقصت أفراح المنى وأشواق الحياة . لم يزل يذكر هذا اليوم بتفاصيله ، رغم مرور عشرين عاماً . لم يزل حاضراً بذاكرته ، باقياً عطره في نفسه .

سمير يتذكر . . كيف استهام حباً بسحر الوردة ، باللمسة الحانية ، بالأنامل الرقيقة . يا لها من سعادة ويا له من يوم جميل . وبات ليلته ينظم الأشعار والأغاني ، الدنيا كلها لا تسع أحلامه الطليقة . وتمناها زوجة . هو صغير السن ، لكن أحلامه تنتهي عند الاقتران بواحدة . وما أكثر حديثه الى نفسه بأنه إذا ما أحب فتاة تقدم للزواج بها . الحب والزواج صنوان لا يفرق بينهما . ولكن كيف يفكر في الزواج ولم يزل تلميذاً في الإعدادية ؟ . لابد من نيل الشهادة والعمل بها ، حتى يظفر بحبيبته .

سمير يتذكر . . يوم كتب يهنئها بالعيد ، ويقذف بالرسالة من تحت الباب ، موقعة باسمه . كان جسوراً جريئاً ، وكان ساذجاً أيضاً . يبتسم ، مسترجعاً ما حدث . أمها التقت بأمه ، وأرتها الرسالة و . . . .

ـ يقدر سمير أن يهنئها بنفسه ، هو كأخيها . . .

كلمات أم فيروز كالماء الصافي ، كالصوت الشجي ، وخجل من نفسه . كيف طاوعته نفسه وسطر الرسالة ، ولم يبح لها بشيء . هل كان طيراً أخرس أم صبياً غفلاً ؟ . سمير يتذكر . . تترقرق الدمعة في عينيه ، تحركها كوامن الشجن . فما زال على حبه لفيروز ، طاهراً ، أبيض ، ساحراً ، صافياً . . وما زال الطير الأخرس لا يجرؤ على المواجهة ، فيحب فتاته من

بعيد لبعيد ، يخشى الاقتراب كأن ناراً إذا مسها أحرقته . ويجلس في هدأة المساء ، يحاكي ما يسمع من أغان ، يسطر على منوالها كلمات حب لفيروز . ومن شرفة النافذة ، يتطلع الى القمر، ويرنو الى وجه حبيبته .

سمير يتذكر . . يتذكر هذا المساء الحزين ، وقد أطل كعادته من الشرفة ، يأمل أن يظفر بنظرة ، وينعم النظر للفيروز الساحر . واذا بشاب يكبره سناً ، في الشرفة المقابلة، يتطلع مثله الى فيروز . يغضب ، يغلق خصاص النافذة ، ويرقب الشاب الأسمر الجسور من بين الفتحات الخشبية ، والذي أفسد حلمه الوردي . ورأى فيروز تطل من شرفتها ، ولم يزل خصمه مشرئباً بجذعه تجاهها ، بطريقة مجافية للذوق . ويتغنى بلحن عاطفي معروف ! يا له من وقح ! خيل إليه أن حبيبته هتكت بكارتها . إنه يصونها في حنايا قلبه ملاكاً ساحراً ، خفيف الظل حلو القسمات . ولم ينم ليلتها . بات مؤرقاً وقد اسودت المرئيات في ناظريه .

سمير يتذكر . . يتذكر محاولته الطفولية كي ينقذ فيروزه من قبضة صياد ظالم ! . جلس الى مكتبه وانتزع ورقة من كراسة ، وكتب بيده اليسرى ، خطاباً غرامياً ملتهباً ، ووقعه باسم غريمه ، ووضع الرسالة في مظروف ، وكتب عنوان فيروز واسمها ، ولصق طابع البريد ، وهدأت نفسه كأنه أزاح عبئاً ثقيلاً ، ولكن الى حين ! . فحين لمح موزع البريد يطرق

البـاب ، ينـاول أم فيروز الخطـاب ـ المكيـدة ، وجف قلبـه . ارتعب . حتـماً سيفتضـح أمـره . يقـع شجـار بين أم فيروز وأم الشاب الأسمر وأبيه . قلقت نفسه ، رغم أن الشبهات لم تحم حوله .

سمـير يتـذكـر . . يتـذكر تفاهته ، اذ لم يتقدم خطوة من أجل فيروز ، التي عجلت الأم بتزويجها أول رجل يطلب يدها . وارتحلت فيروز بعد شهور قلائل الى بيت زوجها ، ولم يعد يراها ! .

قبـل تخرجـه في الجـامعة بعام ، أتاه صديق قديم ليقصده في مساعدة أخت زوجـة أخيـه في دروس الرياضيات . التقى بفتـاة مرحـة اسمهـا عبـير . اسم جميل . كان الدرس الأول في حضـور صديقـه ووالـدهـا ، والثاني في حضور أخيها ، والثالث بمفـردهما . عبـير لم تكن جادة ، تقحمـه في أحاديث بعيدة عن الـدرس . عبـير تصغـره بسنـوات قليلة . كانت بنت شقيـة ، لا تتحرج في الحديث معه في أدق الأمور الخاصة بالرجل والمرأة . اندهش . لكنه أعجب بجرأتها واستمالته شقاوتها .

سمـير يتـذكـر تلك الليلة الليلاء ، حين لم يكن في البيت سواهما . وانتهـزتهـا فرصـة أحضـرت زجـاجة عطر فترش على يديـه ، وتـدنـو من وجهـه . ثم تحكي قصة فيلم شاهدته . . و ينقطـع النـور فجأة ، تحضـر شمعـة ، تقـترب من وجهه ، لفح أنفـاسهـا أريـج أقـوى من العطـر . يبتعد قليلاً . يبتسم . ماذا

تريدين يا عبير ؟ . اختلس قبلة . قالت وهي تتحسس خدها :

ـ لا تكرر هذا . . .

بدأ يشرح ، تراقصت الرموز الرياضية ، ضاعت معالم المعادلات . استأذن منصرفاً ، قادته الى السلم وبيدها شمعة .

سمير يتذكر . . يتذكر تعاسته يوم مجيئه قبل الامتحان . ارتسم الوجوم على وجهه . سألته :

ـ مابك الليلة ؟ .

ـ لا شيء . .

ـ أحوالك تغيرت .

ـ ربما لأني لم أنم ليلة البارحة .

السبب الخفي يعرفه . هذا آخر لقاء يا عبير . كيف أجدد لقاء غيره ؟ . وان التقينا ، فهل تتاح الفرصة ؟ . كان قد كتب ورقة صغيرة ، ووضعها في جيب قميصه ، محدداً موعد لقاء . فان هي تبادله العاطفة ، فستحضر . . وإلا . . لكنه جبن . . لم يجرؤ على اعطائها الورقة . خشي أن تسخر من سذاجته . وبرغم تعدد اللقاءات ، لم يسألها ان كانت تبادله حباً بحب ؟ . وهل يوفق في طلب يدها من أهلها ؟ .

انتصف الليل . وأفراد الأسرة ، كل راقد في مخدعه ، وبقيا ساهرين ، يشرح الدرس ويشرد ، وفي لحظة ، وجم الاثنان . لعلها أحست ، لعل قلبها خفق . . سألت :

ـ أتقول شيئاً ؟ .

ـ أنا الذي تهيأ لي أنك تقولين شيئاً ؟ .

ابتسمت ابتسامة خفيفة . كان الصمت رسولها . ليته يتزوجها . بعد عام سينهي دراسته ، عبير هي الزوجة المناسبة .

بعد أن يؤدي الامتحان ، يطلب يدها . بالطبع ستوافق . .

أتاه صديقه ، يزف بشرى نجاح عبير ، ويثني على مجهوده ، و . . يدعوه لحفل الخطوبة ! . لم يحسب للمفاجأة حساباً . .

ـ لماذا لم تقل لي ؟

ـ أردت أن أفاجئك ؟ .

لو علم ، ما فكر فيها لحظة واحدة . وعبير . . ألم تبادله مشاعر الهوى ، وتسامرت معه في أمسيات حلوة ساحرة . لم أخنك يا صديق . كدت أرجوك رسولاً تطلب يدها ! . انتهبته الهواجس ، أصيب في أعز أمانيه . يبدو أن أهلها أجبروها . عبير تحبه ، بالتأكيد تحبه ! . . نظراتها ، همساتها ،

ضحكاتها ، نكاتها ، لمساتها ، قبلاتها . . كل شيء ينطق بحبها .

جلس يخط رسالة الى عبير . يبارك الخطوبة ويعتذر عن الحضور . كان الخطاب نابياً مجافياً للذوق . فقاطعه صديقه ، وانقطعت عنه أخبارها .

انها ذكريات لأمسيات حلوة ، لقصة حب لم تكتمل فصولها .

* * *

وتقفز الى الخاطر صورة قريبة ، مضت عليها سنوات أربع ، حين تقدم لخطبة ياسمين . رآها فقنع بها . متوسطة الجمال ، لكنها حلوة المعشر . توددت اليه ، وحرصت على استمالته . لم يبق على تخرجها في كلية التربية سوى عام واحد . خطبها ، وجمعتها أمسيات هادئة . . مرة بجلسة على النيل ، وأخرى بالمسرح ، وثالثة بالخيالة ، ورابعة بركن ظليل . تعلقت به ، وحرصت على ارضائه . تختلق له الأعذار إذا تأخر . وان عاتبته ، فعتاب رقيق تنهيه في ثوان كأنها لم تقصد . وما أكثر اتصالها هاتفياً . أصبحت ياسمين عالمه كله . وساعدها في دراستها ، بنقل المحاضرات بخطه الجميل ، كما ساعدها في انهاء أبحاثها ودراساتها . لم ينغص شيء حياتها الحلوة . اتفق

مع أمها على حفل القران ، بعد الامتحانات . وبدآ يشتريان لوازم الفرح . . قماش الفستان ، حقيبة اليد ، الحذاء ، علبة التجميل ، وهدايا أخرى جميلة . اقتسما الفرحة والبسمة والكلمة الحلوة . سمير يتذكر حلاوة الأيام ، آه لو تعود . كاد يحقق ما يتمنى ، الى أن وقع ما وقع . كيف ؟ . تعتصره المرارة وهو يذكر هذا اليوم . . يوم فرح وسعادة في بيت خطيبته . كان يتسامر معها ، تحدثه عن قلقها ، وعن فاروق المعيد بالكلية ، الذي وعدها بالزيارة عند ظهور النتيجة ، قالت له الأم :

ـ فاروق من معارف العائلة ، وكان ينوي خطبة ياسمين ، لكن النصيب . .

لذلك يتهم فاروق . . أو يكون تصرفه من منطق الرجل المهذب ، الذي لايجعل من فشل علاقته عقبة . أواه يا سمير . مبررات تزحم عقلك بها ، ولم تلتق بعد بهذا الفاروق ، ولا تدري حقيقة ما يربطه بياسمين . لكنها تحبك ، تتعلق بك ، تخاف عليك . دعك من هواجس زائفة ، عش لحظات السعادة ، لم يبق على حفل الزواج سوى أيام قلائل .

وفي المساء ، أتى فاروق يبشرها بالنجاح . هرعت تستقبله وتحتفي به ، كانت فرحة ، تركت خطيبها غير متعمدة . تغيرت فجأة . استأذن غاضباً ولم يكمل السهرة ، ونسي أن ينطق كلمة (مبروك) . أكلت النار صدره . وبات

ليلتــه مؤرقــاً ، نادبــاً حظــه . ما زال بقلب ياسمين حنين للماضي ، للحب الـذي كان . وما حرصها عليه وتوددها إليه ، إلا ستـار تسـدلـه على المـاضي النـابض به قلبهـا . تحتال على عواطفــه ، تتـزلف إليـه . يا لزيف المشـاعـر ، ويـا له من حظ عاثر ! . أوه يا سمير .

وفي الصباح ، التهبت مشاعره ، فأمسك بالقلم ، وخط رسالة . صب فيها المرارة التي أحسها . قال لها :

ـ الصـدق . . الصدق . . الصدق . . يا لها من كلمة افتقدتها خطيبتي ، فاستحال عليّ أن أستمر .

وضع الرسالة بصندوق البريد ، كأنه يزيح عن صدره هما ثقيلاً .

وفي اليوم المحدد للفرح ، أتاه رسول يردّ له الشبكة والهدايا .

ندم على رسـالتـه القـاسيـة . حاول الاعتـذار ، هولم يقصـد ، لكن الأبـواب أوصـدت بعنف . . و . . كل شيء نصيب يا سمير .

* * *

ايه يا سمير . هكذا الحياة . . مريرة . . تنسل في خفة

أيـامهـا وليـاليهـا . يمضي الـزمن ، يدور العـام ، تحل ذكـرى الميلاد ، تضاف سنة الى عمرك ، تخصم مما تبقى لك في الأجل المحتــوم . كل عام يمـر ، يدنـوبك من نهايـة الـرحلة . لعلك تستريح من الندم على ما فات .

انحدرت دمعة . ثلاث قصص تذكرها الليلة . كل قصة انتهت برسالة غير سارة ، وقضى ليلته أسير الوحدة والندم .

مضى قطـار العمـر ، يمضي ، حثيثـاً مرة ، سريعـاً مرة أخـرى . واليـوم يلتقط الأنفاس ولا أحد حوله ، لا أحد معه ، لا أحـد يؤنس وحـدتـه ، يزيـل وحشـة المكـان ، غير ذكريات حلوة ، بنهـايـات مؤسفـة . فكيف يحتفـل الليلة ومـا من طارق لبيته ، سوى أنين الصمت ، وصرامة الهدوء . .

وفـجأة ، وعـلى غير توقــع ، رن جرس البــاب ، فإذا بصـديق العمـر يأتيـه في المساء المتأخر ، عائداً من رحلة سفر ، قاصـداً إيـاه ، متـذكـراً عيد ميلاده ، حاملاً التورتة ، مثلما كان يفعـل أيـام زمـان . احتضن صديقه العائد بقبلات بللتها دموع غزيرة . وأحضر ثلاث شمعات ، قال لصديقه وهو يرشقها في التورتة :

- شمعة لفيروز ، وشمعة لعبير ، وشمعة لياسمين . . .

اطفأ الشمـــوع . وطفق يحدث صديقــه عن الشمعـات
الثلاث ، وعن العمر الذي ولّى ! .

(١٩٨٣)

باقة ورد

أمـا من لقـاء بها ؟ . رسـائلهـا الـرقيقـة ترسم صورتهـا الـورديـة . عرفهـا بالمـراسلة ، ولم يلتق بها ، وان عانقت عينـاه صورتها . يحفظ كلماتها الحلوة ، يعشق أسلوبها ، عباراتها . كلما حاول الكف عن الكتابة ، لاحقته برسالة عتاب .

كالعـائـد من بلاد الغـربة ، كان حال شوقي ، وهو يفكر فيهـا ، بعـد قصة حب فاشلة مع فتاة ظن أنها وفية ، فغدرت به وهجـرتـه وانتـابـه سأم . انـه يحرث في البحـر . ولما طاف طيف الأمل ، وأحس بحنين جارف الى صديقة المراسلة ، أعاد قراءة رسـائلهـا النـاطقـة بالصـدق والعفـوية . تتسلل أمل الى حياته خلسة . تفرض وجودها . يحفظ كلماتها ، يستنشق العبير الذي ينبعث من رسائلها .

« ياله من أمل حلو أستبشر بقدومه مع كل رسالة » .

كلمات رقيقة تنطق بما يشعر به .

يعرف رسائلها ، من خطها المنمق على الخطاب ، يسبق اسمه لقب (السيد) ولا تزيد عليه . أول الأمر ، ظن أن صاحبة الخطاب تعنيها الرسميات ، لكنه مع الوقت عرفها انسانة لا تسرف في القول ، ولا تدع القلم يغدق الألقاب بلا حساب ، وتكتفي بلقب متداول .

أمل . . فتاة أخرجته من عالمه المادي ، جعلته يسبح في هواء نقي نظيف ، يكاد يخرجه من نطاق جسده إلى عالم الأطياف ، فلا هو شاهد صديقته ، ولا تمناها حبيبة ولا زوجة . وإنما تمثلها صوتاً نقياً تقياً ، يسري في دمائه كخفقان القلب .

سأل نفسه : ما الضير اذا تدبر لقاء ما ؟ . هل يفسد اللقاء عالمه الوردي ؟ . لماذا لا يخطو خطوة إلى الأمام ؟ . لماذا يقيد نفسه بكلمات على الورق ؟ . ولكي يصدق مع نفسه ،

أعاد قراءة الرسائل ، كل الرسائل ، ليتعرف من جديد على صديقته . هي لم تغدق عليه بعبارات التمني والترغيب ، ولم تكذب عليه ، كأن تقول : حبيبي . واكتفت بأن تدعوه صديقاً لها . هي ليست من البنات اللاتي يسطرن الكلام بلا حساب ، وينمقن العبارات بترتيب واتقان . تكتب أمل بريشة حانية ، كلمات لا يخطئها قلبها . تسطر آراءها في الحياة ، تحكي بعضاً

من حياتها . وتسأله رأيه فيما يعنّ لها من خواطر ، وقد تشركه في مشكلة تحيرها . باتت أمل صديقة وفية . فماذا لو رآها ؟ . انها الكلمة الحلوة والأمل المرجو . ما زالت عبارتها بين شفتيه عبيراً فواحاً وهمساً رقيقاً : « يا له من أمل حلو أستبشر بقدومه مع كل رسالة تصلني منك » .

كتب رسالة ، يعرب فيها عن اعتزامه زيارتها ، وحدد اليوم . ولما توجه الى بيتها ، فتحت سيدة عجوز . أجابته :

ـ أمل سافرت عند خالتها ؟ .

ـ متى تعود ؟ .

ـ تعود بعد أسبوع .

ـ أنا صديق أراسلها ، وحددت لها الموعد قبل حضوري .

حدّقت العجوز في وجهه ، ثم قالت كأنها لم تسمع :

ـ ستعود بعد أسبوع .

عاد بخفي حنين ، وقد أدهشه هذا التصرف . كان لابد أن تؤجل زيارة خالتها . هي لا ترغب في لقائه . كتب رسالة عتاب ، بأسلوب حاد . كان غاضباً حانقاً . وأيقن أن كلّ بنات حواء خائنات وغادرات . كلهن حواء . ولكن حنانيك أيها

الشـاب المتسـرع . لم ترك أمـل ، ولم تنسج معـك خيوطاً لقصة حب ، ولم تخدعك بكاذبات الأماني . لم تعدك بلقاء . كما أنها لم ترد على خطابـك الـذي حددت فيـه المـوعـد . حنـانيـك أيها الغاضب الحانق ، فأمل لم تعانق أحلامك يوماً ، ولم تبثك لواعج الشوق والحنين ، ولم تضطرك الى قصائد الحب والغزل .

ارتاح للخاطر الذي هجست به نفسه . لكنه أحس أن في حيـاتهـا سراً ما . السيدة العجوزلم تعطه (ريقاً حلواً) ، وصلبته عنـد باب الشقـة ، بنظـرات جافـة ، ولم تعـالـج مشـاعـره غير المرتبة ، وصدمته بجمودها وصدودها .

ايه يا أمل . . أيها اللغز المحير .

وطـرأت فكـرة . بعث برسـالـة الى موزع بريـد منطقـة سكنها . كتب على المظروف « السيد المحترم موزع بريد منطقة محرم بك ـ الاسكندرية » قال له :

« أستحلفـك أيهـا الـرجـل الطيب ، بكـل ما هو غال عندك ، أن تهتم بطلبي . يا حامل رسائلي الى صديقتي (أمل) التي تسكن بالمنـزل رقم (٧) بشـارع السـد . أرجـو منـك أن تصـف لي صديـقـتي . وكن ـ بالله عليـك ـ مخلصـاً أمينـاً في وصفـك . أنـا أحسدك لأنك تتطلع الى وجهها كلما حملت اليها رسـالـة . اكتب لي أيهـا الـرجل الطيب ، هل تتلقى رسائل من أصـدقاء غيري ؟ , لعلك ترد على رسالتي ، فيهدأ بالي ، ولن

أنسى ما حييت معروفك . دمت يا أخانا الطيب ودامت مرؤتك » .

موزع البريد ، الرجل الطيب كما كتب شوقي ، دمعت عيناه وهو يقرأ الرسالة . وانبرى يكتب الرد ، كأنه يجرح صدره بسكين الألم . . « ان فتاتك أيها الشاب السابح في دنيا الخيال ، قعيدة كرسيها ، فادْعُ لها . . ولكن . . لا تقطع موداتك عنها » .

هرع شوقي الى الاسكندرية ، وقصد أقرب محل زهور ، وأوصاه بارسال باقة ورد ، مصحوبة ببطاقته ، وكتب عليها :

« الى صديقتي أمل . . مع تحياتي » . وخشي أن يزورها حتى لا تنكر نفسها .

كتبت رسالة شكر ، وان كانت تعجب للمناسبة التي دفعته الى ارسال باقة ورد ، وكتبت . . « أنا لن أقطع رسائلي عنك » وآل على نفسه ألا تنقطع رسائله .

وحين تزوج ، واظب على كتاباته لأمل . إلا أن رسائلها وقعت بين يدي زوجته ، فانقلب البيت الهادىء الى ثورة عمياء . أطاحت الزوجة بكل المحاذير وأطلقت للسانها العنان ، يسبّ شوقي ويلصق به التهم . عاندته ، وأصرت ألا تعيش معه بعد اليوم . حاول أن يوضح . . أمل صديقة بالمراسلة

فقـط . فطلبت منـه الكف عن الكتابة الى (حبيبته أمل) على حد قولها فقال لها :

ـ أمل مشلولة ، وهي في حاجة الى رسائلي .

ـ أتظنني ساذجـة ، هل أصـدق ما تقـول وأتـركك تكتب رسائل الغرام لمعبودتك وتضحك عليّ بهذا الكلام ؟ .

ـ صدقاً أقول .

ـ لا أصدق . .

لم تفلح وسائله في إعادة الهدوء الى البيت ، كما أن زوجته المحتدة حددت له أحد حلين : اما ينقطع عن مراسلتها أو تترك له البيت ! . . . .

(١٩٨٥)

لماذا حملت أم غسان السلاح ؟

- ١ -

تثاقلت الخطى ، وكلَّ البصر . ما أثقل العمر الذي ولى
ما زالت تحلم بالروابي والكروم والثرى الضائع . أتاها عام
النكبة . اغتيل زوجها برصاص الهاجاناه . رفض أن يترك
أرضه ، أصر بعناد ، وروى بدمه تربتها البكر . أوصاها أن
ترعى أحمد ولمياء والجنين الذي لم يرَ النور بعد . . وأسمته
غسان .

منذ عشر سنوات ، استشهد أحمد . طوق صدره بأصابع
الديناميت ، وألقى بنفسه على ناقلة جنود . بكت كثيراً . ثم
تماسكت أمام ياسر وجاسر وصلاح . الصغار يلتفون حول
جدتهم ، وهم يعجبون للموت الذي يترصدهم عند كل باب .

فرض القتال وهو كره لكم .

تدفع أم غسان بأحفادها الى ساحة الوغى ، وتجلس مع لمياء يحيكان الملابس للمقاتلين .

يقبل غسان يد أمه وجبين أخته . . يتخذ موقعه بين اخوانه . مدفع غسان يحصد دبابة وثانية وثالثة ورابعة وخامسة ، ثم يسلم الروح . دموع جامدة في مقلتي أم غسان ، وحزن في سويداء القلب . برغم كبر السن ، نهضت أم غسان وصممت أن تذهب الى خط النار ، وأوصت لمياء ان ترعى الصغار .

قد علمها غسان كيف تمسك بالسلاح ، كيف تسدد الهدف . الوطن غال يا أماه . ترابه طاهر مقدس . دبت في عروقها دماء الحمية ، فأطلقت حِمَمَ النار ، بكل مرارة السنين وعذابها .

نشرت الصحف صورة أم غسان ، وتعليق صغير كُتب تحتها , لماذا حملت أم غسان السلاح ؟

- ٢ -

بيروت تقاتل ، تناضل . . بيروت تحترق . . بيروت تصمد ، تتحدى ، تتأبّى ، تشمخ . . لكِ الله يا بيروت . .

بيروت تُحاصر براً وبحراً وجواً . . بيروت لم تستسلم . . حِمَم الموت تحط على المدينة . . لكن الناس في بيروت ، لا يركمون .

بيروت حبلى بالآلام . .

تنزوي لمياء في ركن تعتقد انه آمن ولا أمان . هي آلام الوضع . ذهب صغيرها يحضر القابلة . هدير المدافع يصم الآذان . لمياء تتلوى ، تدعو الله ، وغلالة الدموع تغسل وجهها .

الوليدة اسمها فلسطين . نشرت الصحف صورتها ، وتعليق صغير كُتب تحتها : هكذا ولدت فلسطين ! .

- ٣ -

لمياء ترضع الطفلة فلسطين . لبن الأم حان . تعتصره الطفلة وهي تلهو برجليها ، ويدها على صدر الأم . هدير المدافع تسمعه لمياء عن بعد . أسفر الغدر عن وجهه القبيح . قلق لمياء على الطفلة . هواجس أخافتها . . ماذا يحدث لطفلتي اذا ما قتلت أنا وعاشت هي ؟ . أي مصير ينتظرها ؟ . احتضنتها . قبلت جبينها الصافي . . « لعلها ابنتي ، قبلة أخيرة ! » .

فلسطين أنتِ . . فلذة كبدي ، وتراب بلدي . .

أغفت لمياء ، الطفلة أغفت معها ، رأسها على ذراع الأم ، يد الطفلة ما زالت على الصدر العاري .

أطياف حلم . . ترى فيه أمها . . روحاً هائمة في مدارج السماء . . بثياب بيضاء فضفاضة . . تطير في انسيابية ، كحمامة بيضاء . .

. . . أم غسان تؤم المصلين في المسجد الأقصى . . صفوف المصلين اصطفت في وقار . . كل المصلين يرفلون في ثياب بيضاء فضفاضة ، يوحّد قلوبهم الصفاء والنقاء . ياله من حلم . لمياء مندسّة بين الصفوف ، في ثياب بيضاء فضفاضة . أحست لمياء بالشفافية . صوت أم غسان يكبّر . . الله أكبر . . تدوّى الحناجر بالتكبير . . الكل يركع ، يسجد ، يبتهل . ياله من حلم ! . . .

أفاقت على صوت فدائي قريب من نافذة غرفتها . سمعت صوته يغني بصوت شجي . أراحت ابنتها النائمة في مهدها . وراحت تطل عليه ، بدت صورته عن بعد . كان ينظف سلاحه وهو يغني . . فلسطين حبه وهواه . . كان يغني لحمامة سلام ترفرف في سماء الوطن ، وغصن زيتون أخضر . . يتمنى أن يهديه لحبيبته . شنف صوته أذنيها ، فغنت معه أغنيته الجميلة . . .

انقطع الصوت فجأة . أخرسه انفجار أحمق . تطايرت الشظايا ، فأصابت الفتى . .

بكت لمياء . تخيلته وهو ملقى على ظهره ، رانيا الى السماء . . ولا يزال يغني ! . . . احتضنت ابنتها ، وغنت أغنيته بصوت تخنقه الدموع . . .

١٩٨٢

إلى كل أطفال العالم

عاد طفلي من مدرسة الحضانة ، بصحبة أمه . منذ عاد طفلي ، وهو يترنم بأغنية حلوة . يبدو أن مدرس الموسيقى أنشدها لهم ، باللحن والتعبير . طفلي ابن الرابعة ، لا يحفظ من الأغنية سوى جملة أثيرة ، ويستعطفني أن أرددها معه . يقف قبالتي . . وينشد :

ـ يارب يا رحمن . . ارحم الأطفال . . .

يرفع يديه إلى أعلى ، يتوجه برأسه عاليا ، متضرعاً ، مموسقاً مخارج الحروف . كأنَّ فرقة موسيقية تعزف اللحن وراءه . ثم يعيد الإنشاد لنفس الجملة التي لا يحفظ سواها ،

استنفرني خبر صغير بالصفحة الأولى من الجريدة ، عن مقتل طفلة فلسطينية برصاص الغدر والحمق . دمعت عيناي وأنا أقرأ الخبر ، بينا طفلي يدعو الله أن يحمي الأطفال .

كأنَّ طفلي قرأ الخبر معي . كأنه أدرك الحزن في عيني . كأنه استشف الأسى من قسماتِ وجهي . هز ذراعي ، قال بلثغته المعهودة :

ـ غنِّ يا بابا . . .

ـ ماذا أغني يا ولدي ؟ .

ـ غنِّ معي : « يارب يا رحمن . . ارحْم ِ الأطفال » . غنِّ . . غنِّ يا بابا . . .

أجلس عاجزاً عن فعل شيء . أرد بصوت هامس ، أغنية طفلي . أدعو الله . لكن طفلي رجاني أن أرفع صوتي . أن أرفع يدي إلى أعلى ، أن أقف مثله . . . تماماً كما علمه الأستاذ حسين .

عذراً يا ولدي ، ان خرج الصوت مبحوحاً ، مخنوقاً ، عذراً يا ولدي ، ان كانت العينان دامعتين . عذراً ، ان كان القلب دامياً واجفاً .

« يارب يارحمن . . ارحْم ِ الأطفال . . » .

«- يا رب يا رحمن . . احْمِ الإنسان من جنونِ الإنسان » .

حاول طفلي أن ينطق الكلمات الجديدة ، بصوت متردد . غير واثق أن كلماتي تتفق مع أغنيته . غير متأكد أنني أغني نفس اللحن الجميل ، الذي كان يغنيه .

(١٩٨٣)

حلم ليلة

واتاه حلم زاه . أحلام كثيرة كأطياف الـمنى ، وأخرى كالكـوابيس ، وثالثة كعرائس الجنة ، ورابعة كلوحات سيريالية غامضـة . . مثـل هذه الأحـلام تواتيـه ، مثلما تواتي غيره من البشـر . لكن حلم الليلة ، حلو المـذاق ، لذيذ الطعم . . مع بسـاطتـه ووضـوحـه . وأن اختلف عما رآه من قبل ، في أن هذا الحلم يذكر تفاصيله ، كأنما عاشه في دنيا اليقظة .

خلا لنفسه ، يحتسي الشاي ، مزهواً بالصورة الحالمة التي عاشهـا ، مع الفتـاة التي أحبها في صباه ، مع بشرى ، برشاقتها وقـدِّهـا المتنـاسَق ، وأنـوثتهـا المبكـرة ، وشعـرها الليلي المنسدل المتمـوج ، وعينيهـا النجـلاوين السـوداوين ، وصـوتها الهامس

الرقيق . جارته التي هام بها حباً . تعددت اللقاءات بعيداً عن أعين الرقباء . ووعدها بالزواج . ها هي تأتيه في الحلم ، صورة مشرقة وضاءة . يخاصرها . يراقصها . يحادثها . يسامرها . يعانقها . يلثم الجبين . يصغي لنغمات الصوت الشجي . وينتشي بالحلم . تراقصت من حوله عرائس المنى ، وذكريات الصبا . البراءة كانت ، والصفاء ، والنقاء . . الشيخوخة المبكرة تهزمه الآن ، تهدّ قواه ، تحدّ من نشاطه ، رغم أنه لم يتعدَّ الأربعين ، مثل شيخوخة النخيل . بشرى بصورتها الحلوة ، بدت كما تركهـا منذ عشرين عامـاً ، كأنـما الزمان يعود القهقرى ، ينفض من على صدره كاهل السنين وأثقالها ، يرتدّ لسن البراءة والنقاء ، سن الحماس والإنفعال . يالكِ من فتاة ! . أين أنتِ يا بشرى ؟ . وأين أنا على خريطة الحياة ؟ . زوج يكافح لير بي الصغار . يلبي طلبات البيت . زوجته نجلاء ، توفق بين بيتها وعملها . هي دائماً مشغولة بشؤ ون البيت والأولاد .

الصورة الحلم تشيع الدفء في قلبه . يجتر الحلم ، يذكر تفاصيله،أزعجه أن يستيقظ على صياح هدى . سلبت منه عشقه القديم ، انتزعته من عالمه البهيج . نامت هدىٰ في حضن أمها بعد لأي ، وظل يقظاً في الهزيع الأخير من الليل .

بشرى كانت الأغنية والأمنية . ها هي تزوره في حلم جميل ، طيفاً عابراً . ليت هاتيك الأيام تعود ولو للحظات . ود

لو يتحلل من أسار الحاضر وأعبائه .

يذكر هيامه ببشرى ، رسائله الغرامية ، لقاءاته . ويسأل نفسه : لماذا لم تفِ بالوعد ؟ لم ينسَ الجرح القديم ، يذكره الآن . .

ذات يوم ، زارهـا ابن عمهـا ، وقضى الأمسيـة فيـها علم . . يتسامر معها . جن جنونه ، وهو ابن العشرين . حطم قيثـارة الحب . وادّعى كذباً أنه يحب غيرهـا . لكنـه تعـذب واسودت المرئيات في ناظريه . ما هي إلا أيام ثم أفاق ، وأحس باندفاعه وطيشه . أحب أن يعيد ما كان . معتذراً ، فأوصدت الأبـواب دونـه . بشـرى عزفت عنه ، بعد أن جرح كبرياءها . ألـح عليهـا ، فرمتـه بسهـام الشـك والريبة . كان عليه أن يمد جسور الثقة . وسائله لم تسعفه في ذلك الوقت . لو كنت تقدمت لخطبتها ، لا لتأم الصدع ، وانصلح الحال .

ومـا كان قد كان . فسرعان ما مضت الشهور والسنون ، ونـسـي كل شيء . سار في دراسـتـه حتى تخرج ، ثم تزوج وأنجب . وعاش حياته . . .

أيمكن أن يثير حلم كهذا كوامن الشجن ؟ .

ويسأل نفسـه : لماذا أتاك الحلم الآن ؟ . ما المناسبة ؟ . يعرف أن الأحلام قد تكون عوضاً لنقيصه أو أمنية لا يدركها المرء أو لقلق عارض يترجم بكـابـوس أو هاجس مخيف ، وقـد تكون

صمام أمـان لشخص متـوتر . ولكن هذا الحلم ، ما تفسيره ؟ . انــه لم يغضب زوجتــه ، أو أولاده . حيــاتــه تسير مســارهــا الطبيعي . كان راقـداً على الفـراش في حضن زوجتـه ، متدثراً بأغطية الشتاء الثقيلة . فما هذا الطيف الهابط عليه من سماء مجهولة ؟ .

ربما هي . . بشرى الجميلة . . قد ذكرت أيام الهوى ، فأتـاه الحلم . . ربـما . . وربـما ألمَّ بها مكـروه . . ربـما . . انـزعـج . . هبَّ من مقعـده ، وجـال في أنحـاء الغرفة . مؤنباً نفسـه : كان لابـد أن تتقـدم لخطبتها . أنت لم تفِ بها وعدت . كنت شابـاً طائشـاً . هدمت معبـد الحب . أفـاق لواقعه ، لماذا الانـزعـاج والقلق ؟ . ربـما بشرى تعيش حياتها سعيدة هانئة . وربما تذكره شاباً طائشاً ليس أهلاً لها ! .

فلتعِشْ حاضـرك . دَعْـكَ من غوارب الأمـاني ، وَعُـدْ للحظـة الآنية . زوجتك ترعاك ، وترعى الصغار . ابنك سمير سيلتحق بالمدرسة الاعدادية ، متفوق في دراسته . وابنك سعيد بالابتـدائي . تبـدو عليه دلائل الذكاء . والطفلة هدى ستلتحق بالمـدرسة بعد عام . هدى خفيفة الظل ، وسمير وسعيد يتسمان بالهدوء والطاعة .

ماذا تريد من دنياك غير هذا ؟ .

يعود يسأل نفسه : لماذا أتتني في الحلم ، بشرى ؟ . لماذا

خاصرتها ، راقصتها ، سامرتها ، حدثتها ، عانقتها ، ولثمت الجبين ؟ . ولم أكن رقصت معها من قبل ، أومع أي أنثى ، ومـ عرفت الرقص الغربي قط ! .

وفي الصباح ، قصد جارها ، التقى به في مقر عمله . يعرف الجار من قديم ، وتقطعت بينهما اللقاءات . أحياناً تسمح الظروف باللقاء ، وأحياناً تباعد بينهما . جلس معه ، يسأله عن أحواله ، ثم تطرق الى بشرى . . صعق بما سمع من جاره القديم ، اذ يقول بأنين مكتوم :

ـ أطال الله عمرك . .

ألجم النطق .

أردف الجار :

ـ صارعت المرض طويلاً ، حتى صرعها .

كلمات غير منطوقة ، تتجمد نبراتها .

عاد الى بيته يجرجر بقاياه . يخطو خطى ثقيلة ، كئيب الصدر والقلب والحس . رسم الحزن دوائر اللاعودة . ودوائر الامكان تدور حول نفسها ، حلقات مفرغة لا تفضي لشيء ! . .

(١٩٨٢)

قـاف وهـاء

س عالم بيـولـوجي ، أزعجـه الظلم الذي حاق بالبشر . المجـازر والحـروب والابـادة . القوي يفتك بالضعيف ، يمتص دمـه ، يسلب خيراتـه ، يقتـل أحـلامه . ان لم تتسلح بأسباب المنعـة والقـوة ، فاستسلم لمنطق العصر . س يبحث عن دوره . العلماء يكتشفـون ، يستنتجـون ، يخترعـون . لكن المقـادير ليست في أيديهم . العلماء ـ وهو واحد منهم ـ في مختبراتهم ومراكز أبحاثهم عاكفون .

س يعيش في مجتمعـه الفقـير . الهمـوم كثيرة ، والمشاكل مزمنة ، والمظالم لا تحصى . أين دوره ؟ . لابد أن يفعل شيئاً . يصنع العلم المعجزات . لكن الجماهير مطحونة . لعبة السياسة قذرة . والمجتمع الفقير مغلوب على أمره .

عظمتك أيها العالِم أن تنتصر لفكرة تؤمن بها . العلم المجرد وحده لا يكفي . تستنفره عناوين الصحف . يعيش التوتر في أعلى درجاته . نحن نعيش في غابة . وحوش الغابة أخفّ ضراوة . يتخيل س شعبه وقد انتصر على الدسائس ، واستجمع قواه الذاتية لينهض بنفسه . كيف يحدث ذلك ؟ .
لابد من قوة . الإيمان بالحق وحده لا يكفي . . الغلبة للقوى .
س فرد ، مهما نبغ في علمه ، هو فرد . يستحضر هموم أمته ومواجعها . تؤرقه الصحف . تزعجه العناوين الحمراء والسوداء . العلاج الناجع هو امتلاك القوة . الكلمات سهلة ، التبريرات أسهل . الخداع ، خداع النفس ، لغة مريحة .

النظريات عقيمة ، الجدل كثير . لوى عنق الكلمات ، شيء مألوف . لكن القوي يحقق أهدافه ، والضعيف يزداد ضعفاً .
فماذا أفدت يا أيها السين في الخضم الجارف ؟ .

واتته فكرة . كي ينتصر شعبك ، لا بد من قوة أقوى مما يملك الغريم . السلاح ، تكنولوجيا العصر . . س لا يقدر بامكانيات تخصصه ، أن يحقق شيئاً . لكن الفكرة مسيطرة . لا بد أن يكون الإنسان أقدر على التدمير من خصمه . قد يتراجع الخصم . . ويجلس الاثنان على قدم المساواة على نضد اجتماعات ، يتبادلان المصالح والمآرب ، وتحقن دماء الفقراء .

س يعيش أيام العسر ، تضنيه الفكرة ، يقلبها على شتى

الوجوه . يبوح بها لزوجته . ترنو إليه صامتة . ثم تقول في حزم :

ـ لن تغير الكون . .

صديقه الوحيد ، أستاذ التاريخ ، يعلق ناصحاً :

ـ إذا أردت القوة ، فلابد من تغيير تاريخ قرون مضت ، بسلبياتها وهمومها ! . مازال التفاؤل أغنية يشدوبها . س متفائل . لا بد أن يفعل شيئاً . يترجم الفكرة الى عمل . مهما كان العمل متواضعاً . لغة العلم تقول : حاول . ابدأ . جرب . . لو تقاعس العلماء ، ولم يتشبثوا بأفكارهم في عناد ، معرضين عن أصوات الاستهجان والإنكار ما تقدمت البشرية أنملة واحدة .

كيف يكون الانسان أقدر على التدمير ، أقوى من خصمه ؟ . حاول يا « س » أن تلقح بحيوان منوي من أسد ، بويضة أنثى من البشر . جرب . ضحك زميله . فكرة خائبة . أفحمه بنظريات ومعادلات ونتائج بحوث . ردّ عليه س بأنه سيجرب ولا ضير من الفشل . أتوقع أن يكون المخلوق الجديد ـ إذا نجح التلقيح ـ أقوى من الانسان العادي . ربما ينمو عقله نمواً غير عادي ، يطرح أفكاراً غير أفكارنا . يؤدي دوراً لا نعره . ماذا لو جربنا ، ولتكن ما تكون النتيجة ؟ . هي

المخاطرة بدون تحفظ . لعلنا نهدي مجتمعنا انساناً أقدر على مواجهة الظلم . فالدماء المسفوكة ترعبني تستنفرني .

أكبَّ على الدراسات البيولوجية ، علم الأجنة ، أطفال الأنابيب ، التهجين ، تحسين السلالات ، علم الحيوان . تابع تجارب العلماء ، آخر ما وصلوا اليه . ثم حدد على فعلته . أقدم على الخطوة الأولى تلقيح بويضة بشرية بحيوان منوي من أسد خطته وأقدم وبويضة ثانية بحيوان منوي من ثعلب . وبعد فترة نقل الجنينين في رَحِمَينْ ، وانتظر في قلق بالغ شهور الحمل ، واستعان بالتحاليل والأشعة ليرتب النتائج ويطمئن . وتم الوضع للوليدين .

المخلوق الأول شبيه بالإنسان وأسماه قاف ، والمخلوق الثاني شبيه بالكلب وأسماه هاء ! .

شب قاف ضعيف البنية . توقف عقله عن النمو ، لا يدرك إلا ما يدركه طفل السادسة مع صعوبة النطق . أتى ببعض الأعمال المضحكة والمربكة في آن . يحلو له تجريد نفسه من الثياب وعزا « س » ذلك إلى الشعر الكثيف الذي غطى جلده ، يسير قاف على قدمين كالإنسان . يحلو له الضحك المتواصل . وإذا أعجبته كلمة أو جملة ، يظل يرددها .

أما هاء فقد مشى على أربع . رأسه شبيهة برأس الكلب ، لكنه لا ينبح ، ولا يتكلم مثل قاف . يحلو له القفز

كالأرنب وتسلق الأماكن المرتفعة والنوم تحت الكرسي يستجيب لتوجيهات س . يبدو أن عقله ناضج أكثر من قاف لكنه لا يستطيع مقاومة رغبته في تمزيق الثياب وتقطيع الورق يتكيء على إليتيه مستنداً برجليه الخلفيتين ، أما الأماميتين فيستغلها في إفساد أي شيء يمسك به .

يسجل س انطباعاته حول قاف وهاء . مخلوقان غير سويين . كيف ينمي القوة العضلية ، ويطور قواهما العقلية ؟ . حاول ذلك ، لكنه فشل تماماً . فالمخلوقان لا يضران الغير . لا يستطيعان مواجهة إنسان يؤذيهما فقط يتعاركان طويلاً حتى يُدمي جسداهما . ويبذل س مجهوداً كبيراً كي يفض الشجار ، ويعزلها كلا منهما في غرفة صغيرة .

هجرته زوجته . ادّعت أن به مسّاً من جنون ، أو أن قُوى مجهولة تحركه فيأتمر لأمرها ! . بكت طويلاً في حضن أمها ، وقررت ألا تعود اليه . في هذه الليلة سهر س الليل بطوله ، يحدّق في الجدران ويشخص بناظريه غير مصدق أن زوجته تفارقه . هل كتب عليه ن يعيش مع هذين المخلوقين الغريبين ؟ . الصحف دائماً تجلب له الأرق . ما زال الإنسان وحشاً ضارياً ، أو هكذا صفة الإنسان على تعاقب الأعصر والدهور . البقاء للأقوى للأعتى للأشد . وهذان المخلوقان ، كيف يحارب بهما العنف ، وهما شائهان ؟ . يقتتلان فيما بينهما ، ولا يقويان على قتل نملة ! . أمسك بعصاة غليظة

وأشبعهما ضرباً ، حتى أدمى ظهريْهما ، والمخلوقان مستسلمان ، لا يتألمان ، ولا يقاومان . هل تبلّد الإحساس ؟ .

يبدو أن الجنون أصابه . حكى لصديقه المأساة التي يعيشها . صمت صديقه . يبدو أنه معتوه . هل يفقد الثقة في الناس ؟ . وإذا فقدها ، فهل يثق بنفسه ؟ . نصحه صديقه :

ـ لابد أن تفض المهزلة . .

ـ كيف ؟ .

ـ . . . . . .

شرد لحظات . سأله الصديق :

ـ فيم تفكر ؟ .

ـ أتدري ؟ . . ان قاف وهاء يقتتلان فيما بينهما ، مثل قابيل وهابيل . . بداية البشرية التعسة . انها بداية مشابهة ، لهذا النوع من المخلوقات . لم أفعل شيئاً نافعاً . لابد من فض المهزلة . لابد . لابد .

ـ ولابد أن أتركك تستريح . انك مرهق وفي حاجة الى النوم .

لكن س لم ينم . أحس بالتعاسة . هل يجلب سلالة جديدة شائهة ، لا همَّ لها إلا الاقتتال ؟ . لابد من فضٍّ

المهـزلـة . ولم يضيع الوقت . تناول مسدسه ، وأطلق على قاف رصاصة ، وعلى هاء رصاصة ثانية .

صوت هازىء يسخـــر منـــه ، يضحـــك شامتـاً . يأتيـه الصـــوت من الــداخــل . ها أنت تمارس لعبـة القتـل وسفـك الـدمـاء . سيصبـح اسمك عنواناً يغري الصحفيين أن يصدروا صحفهم به . العناوين كبيرة طبعاً ، بالبنط العريض ، عناوين حمراء وسوداء .

جمد في مكانه لا يقوى على ضحك أو بكاء . . ولم يملك إلا أن يطلق على رأسه الرصاصة الثالثة . . .

(١٩٨٣)

الشّبح

قالوا لي : لا تختل بنفسك . لا تجلس بمفردك . لا تكن وحيداً .

قالــوا ما قالــوا وأشـفـقــوا . حالتي يرثى لها . هكــذا تصـوروا . لا يعـرفـون أني أعقل منهم وأقدر على تمييز الأمور . ظنـوا أن مسًّـا أصـابني . غالوا في تصوراتهم . قالوا إني تزوجت من عالم الجان . . يرتعبون ، فرائصهم ترتعد . .

تلهج الشفاه المذعورة : يا حفيظ ، يا حفيظ . .

أهــل البيت أعلنــوا حالـة الطـوارىء . فإذا ما جلست

وحيـداً بغـرفتي ، ولاحظوا أن الغرفة غير مضاءة ، هرعوا
وأضـاءوهـا . وإذا نمت على سريـري . هرعت زوجتي تنام
بجوارك وتـدثـرني بالأغطية الثقيلة . حذروني من التأخر خارج
البيت ، نصحوني بالعودة قبل حلول الظلام .

اني أرثي لهم ، أشـفـق عليهم . نفـوسهم مريضـة .

ظنونهم مجرد هواجس ومخاوف لا أساس لها من الصحة .

أرتـاد المساجـد . أعبـد الله . أصـلي . أتلو القـرآن .
تصـرفـاتي عاديـة ، عاديـة جداً . هنـدامي غير ملفت للنظر ،
قميص وسـروال ، أو بدلـة . فقـط تتـوتـر جوارحي ، وتنتفض
فرائصي حين أراه . هل أراه ؟ . أم يخيل إلي ؟ . هذا الغامض
يحوم كفـراشـة حولي ، يتبعني كظـلي . ولا يتبـدى لي هيئتـه أو
وجوده ، إلا حين أفكر في أنه يتواجد معي . حينذاك ألمحه لمحة
خاطفة ، كنجم تلمحه ، ثم يهوي فلا تراه ، في غمضة عين .

احتفظت بأكبر قدر من ضبط النفس وهدوء الأعصاب .

حكيت لأهـل البيت ومعـارفي ، ليتني ما حكيت لأحـد . بدأوا
ينظـرون إليّ نظـرة مريبة ، مشفقين علي . ضاعفوا من مخاوفي
وشحنوني بشحنات قلق مميت .

ذات مرة ، كنت أخلع ملابسي بالكامل ، وللحظات وقفت عارياً وأهمّ بارتداء ملابس أخرى . فإذا بي أحس به يضحك مستخفّاً بجسمي ، أوربما هازئاً من عريي . التفتُّ ورائي ، فإذا بطيفه الضاحك ينمحي في أقل من رمشة العين .

ارتعبت . ارتديت ملابسي في اضطراب وعجلة ، ورعشة خفيفة تسري في جسمي ، ثم انطلقت مذعوراً من مكاني ، وفتحت النافذة أطل منها على الشارع ، ثم أدخل منادياً زوجتي . وأنسى تدريجياً ما حدث ، أحاول أن أنسى . . .

مرة ثانية ، كنت على وشك اتخاذ قرار في أمر يحيرني ، فإذا به يهمس في أذني - ولا أراه - ليملي القرار . التفتُّ عن يميني فإذا بالطيف ينمحي في غمضةِ عين ! .

لا أحد يصدق أن شبحي على هيئة إنسان ، وليس في هيئته ما يخيف أويزعج . يكاد يشبهني . همسات صوته لا أستطيع تمييزها ، هي كالصفير الخفيف في الأذن ، لكنها تترجم في ذهني كلمات ذات معنى .

أزعجني ذات مساء ، كنت أهم بالنوم ، فإذا بقلق يستبد بي . أمور حياتية أقلقتني وباعدت بيني وبين النوم . اغفاءة خفيفة ، قمتُ بعدها مذعوراً وقد أحسست بيدين تحيطان رقبتي ، تخنقاني ، ويداي تحاولان تخليص اليدين القاتلتين .

أفقتُ من حلم اليقظة ، الكابوس . . صارخاً . . هرعت الى زوجتي ، قلت لها :

ـ لا تقلقي . . كابوس ثقيل . . الحمد لله الآن .

لم أقل ان اليدين كانتا يديْ الشبح الغامض .

كان قاسياً . تبدّى لي قريناً مشاكساً ، يريد الاجهاز علي ، ويتألق هو ! . . كيف ؟ . . لا أدري . ما المصلحة في أن تقتلني ؟ . هل أسبب لك عبئاً أو تعباً ؟ . أنت تلازمني كظلي . تتبعني . تمشي في ركابي . تخطو بخطواتي . تنظر نفس النظرات . تشم العطر الذي أشم . تتنفس الهواء الذي أتنفس . تضحك مثلي . لكنك فيما يبدو ـ أيها الشبح ـ لا تتألم مثلي . لستَ مهموماً بهمّي . ولا تبكي في اللحظات التي أبكي بعيداً عن عيونِ الناس . اذا كان الموت يبعث الشقاء في نفسي ، فانه لا يعني عندك شيئاً . كأنك جماد أصم تفعل ولا تنفعل ، تؤدي دورك غير نادم على شيء .

أتلو من القرآن ، صارخاً التفكير في هذا المجهول ، شملتني طمأنينة ، وهدأت ، واستسلمت للنوم .

إن الشبح يترصدني عند كل باب وجدار . قد يكون خلفي أو قدّامي أو بجانبي ، أو ينتظرني في مكان ما . إني

أرتعش لمجرد التفكير . . لكني أفكر قسراً ! . أفكر في أنه اذا
ما قتلت الموضوع بحثاً ، أي موضوع . .

. . . . . .

. . . .

تتعمق النظر في الأشياء ، تديم النظر . ولفرط ما تفعل ،

لا ترى هذه الأشياء ! . التطرف يقلب الأمور إلى أضدادها .

ماتراه ، وتمعن في رؤيته ، تجد أنك لا تراه ! . ربما هي فلسفة
خاوية فارغة . الفكرة ملحة ، مسيطرة . فلكي أصرف الشبح
لابد من ادامة التفكير والتشخيص ، أسترجع هيئته ، أستدنيه
بجانبي . أتذكره الآن ، أخاطبه طويلاً . حتماً سينتهي أمره .

الإفراط يجعل المرء زاهداً في أحب الأشياء . فلأفرط في هواك أيها
الضيف الثقيل الظل . . . .

. . . .

. . . .

أمسكت بفرشاتي . مستغلاً هوايتي ، لأرسم صورته .
ولو أني لا أعرف ملامح محددة ، أو زيه الذي يرتديه . لكني
سأحاول قدر الامكان . قضيت أياماً أضيف كل يوم رتوشاً

جديــدة . . خطــوطــاً ، وألــوانــاً ، وأبعــاداً . . وضحكت
للتصوّر . . الرسم أصبح لشيخ وقور ، ذي نظرة وادعة .

سألت زوجتي :

ـ خمِّني . . مَنْ يا ترى صاحب الرسم ؟ .

لحظات تتملى . . ثم تقول :

ـ ربما . . هي صورتك ، بعد عشرين عاماً . .

ـ ماذا ؟ .

قالت مؤنبة :

ـ ألا تعرف ماذا ترسم ؟ . ربما تخيلت منظرك في سن الستين .

ـ هذه صورة شيخ وقور .

ـ ستكون هذا الشيخ .

ـ ربما .

تكتمت أحاسيسي . لم أقل الحقيقة . حرصت على ألا أذكر شيئاً عن الشبح . أنهم يخافون عليّ من الجنون . . أبي وأمي وأخواتي وزوجتي . . حتى صديق عمري ، لا يتفق معي فيما أقول ، ويزعم أن وراء الأكمة ما وراءها . . . قال :

ـ لا تتعمد أن تكون وحيداً ، ولا تفكر كثيراً .

صورة الشيخ الذي رسمته ، أصابت هوى في نفس صديقي . وأحب اللحية الطويلة ، قال إن بياضها ينسجم مع ألوان اللوحة ، ويوحي بالنقاء والطهر والصفاء . الصورة اراحتني . لم يعد الشبح يتبدى لي . لكني أحاول أن أستدنيه ، أظلم الغرفة وأتلفت حواليّ فلا أجد شيئاً . هل أخافته الصورة ، أم انصرف لحال سبيله ؟ ! . أيكون ما أفكر فيه ، وما أراه ، مجرد وهم لا أساس له ؟ . . ربما . . .

. . . . .

. . . .

تنبهت لمواء قطة عند باب الشقة . أصبت برعشة خفيفة . هذه القطة عنيدة . ما ان تراني ، حتى تتمسح في

حذائي ، تلتصق بي ، تحوم حولي ، تخطو مع خطواتي ، كدت أدهسها وأنا أرتقي الدرج . حاولت زجرها واخافتها ، لكنها أبداً لا تبتعد .

يغيظني المواء . أستطيع ضرب القطة ضربة قاضية وأستريح . ضربة مباغتة على أمِّ رأسها ، سينخرس صوتها .

فكرت ملياً . إصرار عجيب ، نداء قوي يحفزني الى القتل .

لابد .

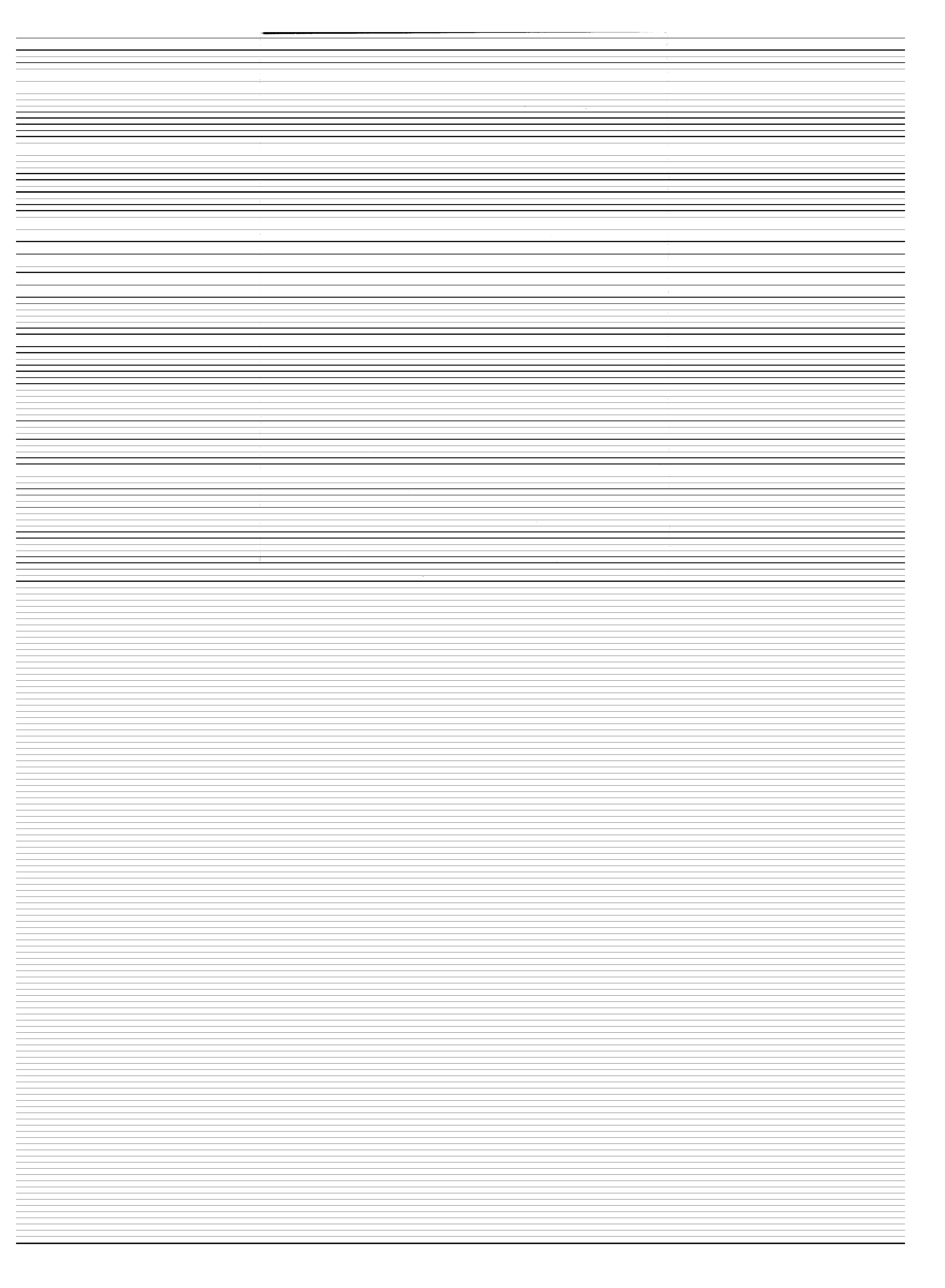
اشتعلت الفكرة في رأسي . العصا الغليظة بجوارك والكل نيام . وفجأة ، رأيته قبالتي على الحائط يضحك ساخراً ضحكة بلا صوت وفي طرفة عين اختفى . هل يهزأ بي ، هذا المجهول ؟ . ما الذي عاد بك في تلك اللحظة ؟ . هل يعنيك أمر القطة ؟ . الضحكة الساخرة حفزتني أكثر ، فأمسكت بالعصا . . لكن المواء انقطع فجأة . لا تتراجع . قد تعاود المواء بعد حين . لا بد من التخلص منها اضرب ولا تخشَ بأساً ، وليذهب الشبح إلى الجحيم . .

. . . . .

. . . .

فتحت البـاب برفق فإذا بالقطـة ممددة لا حراك فيها ودون
أن تنـزف قطـرة دم واحدة وعيناها شاخصتان كأنها تسألني سؤالاً
لا تعرف جوابه .

(١٩٨٣)



بطاقة

* حسني سيد لبيب

* مواليد حي بولاق ١٩٤٢ بالقاهرة

* المؤهلات : بكالوريس هندسة كهربائية

* العمل : مدير ادارة الكهرباء في شركة الحديد والصلب

- عضو اتحاد الكتاب

- عضو هيئة الفنون والآداب

- عضو نادي القصة

نبذة عن حياة المؤلف

ـ حسني سيـد لبيب من جيـل الستينـات حيث ظهـر مع جمال الغيطاني في مجلة الأديب .

ـ يمتاز عن غيره من القصاصين بأسلوبه البسيط الواضح وبجمله المتماسكـة والهـادئـة وبيـانـه الناصع وفي أغلب حالات شخوصه وما يعتورها من فرح ، وألم ، ويأس ، ومعاناة

ـ زار أغلب البلدان الأوربية والشرقية

ـ كتب المقـالة والدراسة الأدبية والشعر والخاطرة والترجمة عن الانكليزية

ـ لقد استهواه عالم القصة القصيرة عن سواه من الفنون

ـ نشـر نتـاجه منذ عام ١٩٦٣ في معظم المجلات اللبنانية والسورية والكويتية والمصرية

ـ كان جوابـه في حوار اجـرى معه حول فعالية الكلمة : « تستطيـع الكلمـة أن تكـون شيئـاً عظيـماً اذا نبعت من أرضنـا العربية ، وكانت لسان حال شعوبنا التي احبطت في أعز أمانيها . . »

المؤلفات المطبوعة

١ ـ باقة حب الى الشاعر خليل جرجس خليل (دراسة) القاهرة عام ١٩٧٧

٢ ـ حياة جديدة (قصص) القاهرة عام ١٩٨١

٣ ـ الثوب الأخضر (قصص) الهيئة العامة للكتاب القاهرة ١٩٨٤

* * *

لبيب ، حسني سيد ، أحدثكم عن نفسي ، قصص ، المطبعة الأولى ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ١٢٠ ص قطع ١٤ × ٢٠ ـ ١٠٠٠ مطبعة اتحاد الكتاب العرب دمشق .

المحتـوى